في الثقافة والحرب

قصص

طائر العنقاء

داود سلمان الشويلي

دار الشؤون الثقافية العامة

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story

في الثقافة والحرب

طائر العنقاء

مجموعة قصص

داود سلمان الشويلي

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٨٨

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الإدارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الإدارة
العنوان :
العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

مدخل

«يالروعة السماء ... ها انذا أنفصل عن معالم الارض ... واسبح في السماء على اجنحة فضية راقصة ... يجذبني قرص وهاج ... يشدني اليه طرب السحابات المتفلقة ... وارتفع حالماً ... احلق متأرجحاً بارجوحة الشوق والغموض .. عالياً ... الى السكون المشرق المتوهج ... هناك ... بعيداً ... اطير ... الاحق عويل الرياح المبهم ... وافاجىء بطائرتي لهوف الهواء المتعلقة ... وأعود منطلقاً في متاهات مشتعلة زرقاء ... وأمسّ سحابات عائمة ... احلق بشموخ صارخ ... حيث لا تصل قبرة ولا نسر ... هناك بصمت يشوبه سكون الكون العميق ... اضيع ... اضيع عن نفسي واصل رويداً ... بقدسية اليك ... اصل الى بُعد لم يصله احد ... بروحي امد يدي اليك يا إلهي ... واحس بالمسافات تقصر ... مابيننا ... وتلامس روحي عظمتك اللامتناهية ... وهناك ... هناك اريد ان ابقى ... معك ... !!»

الطيار

«جون ماكاي»

اللقاء الاخير ....

عندما اهتزت من تحته الطائرة ، سمع صوت قائد المجموعة يأمره بترك الطائرة .

× × × × × ×

كانت غرفة الحركة مزدحمة بالطيارين ، تبين له من بين رفاقه الطيارين وجه كان قد ألف صورته من قبل ، تساءل مع نفسه : من يكون ؟ وعندما ترجم افكاره تلك الى كلمات مسموعة ، اجابه ذو الوجه المألوف ، والذي مضت سنوات على آخر رؤية له : نعم . . انك ياسر . . النقيب الطيار ياسر عبدالرحيم ، أليس كذلك ، انك ياسر ، وانا سمير ، الملازم الطيار سمير ، عندها سقطت اسئلته على اذنيّ رفيقه وزميل صباه الملازم الطيار سمير عبدالواحد بسرعة لم يستطع من جرائها ان يجيب عنها جميعاً . . . لكنه استطاع أخيراً ان يقول له : الحمد لله . وعندما هم أن يكمل معه الحديث سمعا صوت آمر القاعدة يأمرهما بالدخول الى غرفة «الايجاز» ليريهما على الخارطة الموقع الذي سيتم قصفه من قبلهما .

× × × × × ×

لحظة سماعه لصوت قائد المجموعة يأمره بالخروج من الطائرة سالماً ، كانت عيناه قد التقطتا للتو صورة للوحة الاجهزة التي امامه في مقصورة الطائرة ، والتي تلونت بلون اخضر من خلال زجاج خوذته الأخضر . تبين له أنّ هناك خللاً في محرك طائرته وقد توضحّ من خلال مؤشرات اجهزة القياس التي امامه .

× × × × × ×

عندما خرجوا من غرفة الحركات . . كانت جميع افكاره قد تركزت في

بؤرة واحدة هي الهدف الذي سوف يقود طائرته اليه . . لمَّ خارطته . . . رتبها جيداً . . . دسها في جيب بدلته الشفاف . ثم اقفل فتحته جيداً وتوجه الى السيارة ذات اللون الخاكي التي كانت تنتظره ورفاقه الطيارين امام غرفة الحركات .

كان كعادته دائماً ، في مثل هذه اللحظات يجمع افكاره ويضعها في منطقة الهدف التي تتراءى له امام عينيه على الخارطة التي قد تبينت ملامحها من خلال جيب بدلته الشفاف .

عندما جلس على احد كراسي السيارة ذات اللون الخاكي التي ستقله ورفاقه الطيارين الى حيث الطائرات التي تتحرق شوقاً ـ هكذا كان يقول لرفاقه الطيارين والفنيين ـ الى قصف رؤوس الاعداء ، شاهده مرة اخرى وهو يملأ فتحة باب السيارة .

سيدي نقيب ياسر . . عندما نعود ان شاء الله ، سأزورك في السرب ، هناك اشياء كثيرة يجب ان احدثك عنها . وقبل ان يتفوه بأية كلمة . . . وجده يهرول الى السيارة الثانية ، لينضم الى مجموعته هو الآخر . . . قال مع نفسه : «مازال كما عهدته» .

× × × × × ×

كانت مؤشرات بعض اجهزة اللوحة التي امام عينيه قد بدت له تؤشر أرقاماً تدله على وجود خلل في محرك الطائرة . . . حرك جسمه المنحشر في كرسي الطائرة قليلاً . . . جمع تفكيره كله وحدث نفسه : ـ «يجب ان اصل بها الى ارض الوطن» عندما سمع صوت قائد المجموعة يأمره بترك الطائرة .

× × × × × ×

كان الهدف امامه . . . بدا له وهو معمل كبير أخذ يدنو منه . . . وكان آمر القاعدة قد شرح لهم بإسهاب المسالك التي يسلكونها للدخول الى منطقة الهدف . . . ووقت القاء القنابر . . . ومسالك الخروج من الهدف . . .

كان الدخان يتصاعد من اكثر من مكان فيه . . تحقق جيداً قبل ان يقذف بقنابره على الهدف ، كانت ضربات رفاقه قد احدثت تلك الانفجارات وذلك الدخان . . . وعندما وصل الى نقطة القصف التي تبينت جيداً من خلال اجهزة الطائرة . . . ضغط على زر الرمي بإبهام يده اليمنى وقال بصوت مسموع :ـ «ياالله . . .» عندما سحب عصا القيادة نحو جسمه ، فشعر بها ترتفع الى الاعلى . . . وقتها احس بها تهتز من تحته . . . وكانت اذناه تلتقطان امر قائد المجموعة بترك الطائرة ، والهبوط بالمظلة سالماً . . . سمع الصوت مرة اخرى . . . فترجم صوته ما كان يؤمن به من افكار . . واحس ان ذلك قد عَبَرَ عَبْرَ الأثير الى قائد المجموعة واثقاً متماسكاً . . .

احس ان طائرته تقوده الى الارض ، كانت مقدمتها تتجه الى الاسفل . . وكان جهاز تأشير الافق يبين له ذلك بصورة جيدة . . . حرك بيده عصا القيادة ، جذبها اليه بكل قوته . . . فبانت له السماء مرة اخرى بعد ان عبرت مقدمة الطائرة خط الافق الذي يفصل الارض عن السماء ، حيث رآه ماراً افقياً من خلال زجاج المقصورة الامامي. . عندما سمع صوت قائد المجموعة يأتيه آمراً بترك الطائرة مرة اخرى .

كرر عليه الأمر بالخروج من الطائرة . . . فجاءه الصوت مرة ثانية محملاً بالثقة التي حسدها عليه تلك اللحظة . . . سأعود بها الى ارض الوطن . . . لن أمكنهم مني :

«شهادة آمر السرب : ـ كان ضابطاً جيداً ، وطياراً كفءاً . . . وعندما كان الحديث يدور بين رفاقه الطيارين عن حوادث الطيران خاصة على ارض العدو ، كان هو يبدي افكاره التي يؤمن بها جيداً امام رفاقه وهو يعلن تلك الافكار قائلاً :

ـ لن امكنهم مني . . . وعندما يحدث لطائرتي اي خلل فني ، او عند اصابتها لن اتركها . . سأعود بها الى ارض الوطن او استشهد داخلها .

ـ وعندما كنت احذره من ذلك ، وابين له مخالفة ذلك للتعليمات كان هو يقول : ـ

ـ لا اقبل العيش في ذل الاسر . . . فالعدو الذي نقاتله اعرف نواياه جيداً»

× × × × × ×

كان يحس بها تقوده الى الارض ، مقدمتها تهوي به . . . وكانت الارض تتجه نحوه ، سريعة . . سريعة . . . حاول ان يعيد مقدمة الطائرة الى الاعلى ، سحب عصا القيادة اليه . . اهتزت من تحته الطائرة محدثة اهتزازات تبيّن تأثيرها على اجهزة القياس امامه . . عندها سمع صوتاً يأمره : ـ اقذف . .

كان ذلك صوت الطفلة سميرة مازال يدوي في اذنيه . . . اقذفها . . . كان ذلك الصوت يأتيه من بين اشجار حديقة البيت ، والكرة مازالت بين يديه . . . وسمير مازال منبطحاً على «ثيل» ارض الحديقة الاخضر وهو يضحك بصوت عال . . . رمىٰ بالكرة الى حيث الاشجار . . . فرآها تخرج وهي تمسك بها . . . ركضت نحو اخيها الذي اوقف ضحكته وهرول مسرعاً ليحتمي خلف احدى الاشجار .

«شهادة قائد المجموعة : ـ عندما شاهدت طائرته تحترق ، أمرته بأن يتركها . . لم يجب . . فكررت عليه الامر .

كنت ارى طائرته من خلال المرآة الجانبية للمقصورة تهوي الى الاسفل كررت عليه أمر القذف . . لم يجب . . كنت واثقاً بأنه لن يتركها . . . انا اعرف جيداً النقيب الطيار (ياسر) . . . وتبينتها لآخر مرة من خلال المرآة وهي تتسلق الى الاعلى . . . حتماً انه استطاع ان يعدل من وضعها . . . كان واثقاً من نفسه جداً ، انه سيصل بها الى داخل حدودنا الدولية . . وكان يكره ان يترك طائرته على ارض العدو . . . يكره ان يقع اسيراً بيد اعدائه . . . وعندما أمرته لآخر مرة ان يترك طائرته سمعته يقول : لا اله إلا الله . . . بعدها لم اسمع شيئاً»

× × × × × ×

عندما احس بها تهوي الى الاسفل ، لم يتمكن من اعادتها الى وضعها الافقي الصحيح . . . حاول اكثر من مرة ، كانت جميع اجهزتها قد شلّت عن الحركة . . . كانت ماتزال هناك مسافة للوصول الى ارض الوطن . . . وهناك ـ قرر مع نفسه ـ ان . يقذف بنفسه الى خارج الطائرة .

كانت هي تهوي به نحو الارض . . . عندها تحسس بأصابعه عتلة قذف الكرسي . . . فقال لنفسه : ـ لا . . . لكن صوت سميرة ناداه بأن يرمي الكرة الى سمير . . . ترك الكرة تقع من بين يديه على «ثيل» ارض الحديقة التي بدت امامه كسجادة مخملية بلون اخضر ، . . وركض اليها ليرفعها من على الارض بعد ان رأى قدمها تنزلق بها على الثيل . . . سحب يديه من على عتلة القذف . . . كانت الارض تتجه نحوه بسرعة . . . عندها

سمع صوته يردد : لا اله إلا الله . . .

× × × × × ×

«شهادة الملازم الطيار سمير عبدالواحد : -

- سيدي كنت متشوقاً للالتقاء به . . . اكثر من عشر سنوات ، لقد انقطعت اخباره عنا بعد ان رحل وعائلته الى مدينة اخرى ، وعندما رأيته صباح هذا اليوم في غرفة الحركات كدت اطير فرحاً . . كنا زملاء . . كان هو اكبر مني بسنوات . . . وكانت حديقة بيتنا هي المكان الوحيد الذي نلعب ونقرأ فيه . . . وكانت سميرة - اختي - طفلة صغيرة . . كان يحبها كثيراً . . يشتري لها الحلوى . . . كانت والدتي تحبه كحبها لنا . . . كانت هناك اشياء كنت قد اخبرته بانني سوف احدثه عنها . . . لقد سألني عن سميرة . . تلك الطفلة التي كان يحب مشاكستها له ، قلت له سأزوره في السرب . . . ولم اكن اعرف بأنني قد التقيت به اللقاء الاخير» .

١٩٨٧/١/٢٧

قبل الساعة السادسة صباحا ...

كان تساقط قطرات المطر على الغطاء النسيجي لعجلة «الواز» مثل صوت انفراط حبات مسبحة من خيطها على صفيحة معدنية . . . وكان الضوء الامامي للعجلة يجسم امامنا - انا والسائق نائب العريف حميد - بشكل اسطواني ، خافت صورة قطرات المطر وهي نازلة من الاعلى الى الاسفل ، لتنكسر على اسفلت الشارع ، مثل لآلىء صغيرة ينكسر داخلها شعاع الضوء الاصفر ، فتلتمع قشرتها الخارجية به . . . عندما تعبر تلك القطرات المجال الذي يملأه ذلك الضوء الاصفر الخافت . . .

كان اسفل الشارع قد بدا أمامنا مغسولاً . . . نظيفاً يلتمع تحت اشعة ضوء العجلة ، كاشفاً امامنا بركاً صغيرة صيرّها المطر منذ قليل . . تتراقص على صفحتها في آن واحد أضواء المصابيح وقطرات المطر بتناغم جميل .

انتبهت الى ان سائق العجلة قد حرك احدى يديه ليحكم من لف «القمصلة» الشتوية الزرقاء على جسده بصورة جيدة ليحتفظ بما تمنحه من دفء ، كان هو بحاجة اليه في هذا الجو البارد ، أما يده الثانية فقد تركها تحرك مقود العجلة التي اجتازت للتو المنعطف الاخير للشارع الذي يوصل الى ملاجيء الطائرات ، حيث بدت لنا ، هي الاخرى ، في هذا الظلام الحالك السواد كأشباح لاجساد عملاقة في فضاء واسع تلونت قبته بلون الغيوم السوداء التي ابعدت عنا ضوء القمر ، حيث اخفته بين طياتها الكثيفة .

كان الهواء الصقيعي ينفذ من خلال الفتحات الموجودة في مناطق كثيرة من جسم العجلة ، ويترك اثراً كوخز نصل سكين حاد بعد ان ينسل الى داخل نخاع عظام جسمي ، عندما احسست ان قدميّ لا أشعر بوجودهما . . . حاولت ان احركهما ، لم استطع ، فكرت ان اخرجهما من جلد الحذاء الاسود

وافركها بيدي ، وعندما حاولت ذلك ، سمعت صوت نائب العريف حميد وهو يكلمني : ـ

ـ سيدي ، هل تنزل ام تظل جالساً داخل العجلة ؟ ندت من بين شفتي . . آه . . تحمل علامات استفهام واندهاش :

ـ ها . . . كلا . . . كلا سوف انزل .

× × × × × ×

كانت الساعة تشير الى مابعد منتصف الليل بقليل عندما دق جرس الهاتف الذي كان مركوناً على منضدة صغيرة قرب السرير . حيث كنت اغط في نوم عميق بعد تعب ثلاثة ايام بلياليها ، كنا ، انا ومنتسبو سربنا نقوم بتجهيز وتسليح الطائرات لتنزل غضبها وغضبنا على رؤوس الاعداء .

عندما استيقظت ، على رنين الهاتف ، سمعت صوت الريح وهي تعزف لحنها الوحشي خارج البيت . . . وقطرات المطر تنزل متسارعة على نافذة الغرفة والارضية الكونكريتية المحيطة بجدارها من الخارج فتترك اصواتاً رتيبة .

كان المتحدث معي المقدم الطيار آمر سربنا ، يستعجلني الالتحاق الى السرب . . . قلت له قبل ان اضع السماعة في محلها :

ـ نعم سيدي . . حاضر سيدي ، مع السلامة .

× × × × × ×

عندما نزلت من العجلة ذات اللون الخاكي ، حركت قدمي عدة مرات ، كان المطر يتساقط ، والريح تلفح وجهي بسياط حادة كنصال السكاكين فتترك اثرها على الشفاه المرتجفة ، والاسنان المصطكة ، والانوف

المحمرة .

لملمت قمصلتي الشتوية ذات اللون الأزرق على جسمي جيداً بعد ان وضعت قبعتها على رأسي واحكمت ازرارها . . فركت راحة يدي لاستشعر بعض الدفء من خلالها . . . كان الفنيون قد اصطفوا في نسق عسكري قرب احد ابواب الملاجيء اتقاء المطر الذي اخذ ينهمر بشدة .

كان الأمر الذي جاءني عبر اسلاك الهاتف من غرفة حركات القاعدة هو تبديل حمولة الطائرات بحموله من نوع آخر . . . وبوقت حدد لي . . . وهو حتى الساعة الخامسة صباحاً .

كان الوقت حرجاً جداً . . . ولكن لا . . . هكذا حدثت نفسي بعد ان اتصلت بنائب الضابط الاقدم . . . لم تكن المرة الاولى التي يطلب منّا ذلك . . . نحن في سباق مع الزمن . . علينا ان ننهي مهمتنا في الساعة الرابعة والنصف . . . هناك نصف ساعة سنرتاح فيها .

بعد ان تحرك المراتب الفنيون ، وتوزعوا على مجاميع انتبهت الى ان الضباط المهندسين والفنيين الذين جلبتهم عجلة «الواز» وانتزعتهم من فرشهم الدافئة واحلامهم الجميلة ، يقفون خلفي . . . كانوا ثلاثة . . خالد ، نضال ، ضياء وكلهم برتبة ملازم اول .

ـ صباح الخير .

ردّ الجميع على تحيتي

ها ملازم اول خالد . . الم تعرف بحالة الجو خارج غرفتك ؟

سألته مندهشاً بعد ان رأيت جسمه يختض من البرد . . . كان نحيفاً كقصبة عراقية في اهوار الجنوب .

ـ كلا سيدي . . ولكنني لم انتبه لذلك ، كنت قد ارتديت ملابسي بسرعة ، لم أحس بالبرد إلا هنا .

كان الملازم الاول خالد ، الذي نسي ان يرتدي قمصلته الشتوية وزميله الملازم الاول ضياء هما الضابطين المسؤولين عن التسليح ، وكانا من الضباط الجيدين والنشطين قلت له :

ـ اذهب الى غرفتك وارتد قمصلتك فأجابني بثقة عهدتها فيه :

ـ سيدي ، لا اعتقد بأنني سأحتاج اليها عندما يبدأ العمل . قلت له :

ـ هذا صحيح ، ولكنني لا اريدك ان تمرض .

كانت السماء لما تزل ترسل سيولها كشلالات من ماء هادر ، والريح تشتد ، وهي تعزف الحانها الوحشية لتلاعب بها آذاننا وهي تسفع على وجوهنا سياطها الثلجية الباردة ، والشوارع التي تربط ما بين ملاجيء الطائرات قد امتلأت ببرك المياه .

كان صوت تساقط قطرات المطر يُسمع وهو يرتطم برتابة على سطح تلك المياه التي تجمعت على اسفلت الشوارع في مناطق متباعدة . .

نظرت الى ساعة يدي ، كانت عقاربها الفوسفورية تشير الى الواحدة صباحاً ، عندها شاهدت شاحنتين كبيرتين تقفان قرب «دكّة» انزال القنابر ، وقد غطيتا بغطاء مشمع ، كانتا محملتين بصناديق القنابر .

كان السائق ، جالساً خلف مقود عجلته التي تبلل غطاؤها النسيجي بماء المطر . . فتحت بابها وجلست ، سمعت صوت محركها يُدار . . كنت اعرف ان نائب العريف حميد ـ حتماً ـ سيأخذني في جولة بين الملاجيء لأتفقد العمل فيها قبل ان التحق بمجموعتين من المراتب الفنيين ، لانه يعرف ذلك

جيداً حيث كانت الليالي الثلاث الماضية قد علمته ذلك ، بعد ان التحق في سربنا قبل اربعة ايام ، وقبل ان يترك لعجلات «الواز» حرية الحركة على اسفلت الشارع المبلل والمملوء ببرك مياه الامطار ، بادرني قائلا بتحذير :

ـ سيدي ، انتبه ، ان الغطاء النسيجي مثقوب . . . ارجو ان تجلس بعيداً عن الثقب .

واشار لي بيده الى مكان الثقب . حيث كان الماء ينزل منه ، وبدا الغطاء كالقربة المثقوبة ، ينز ماء ، قلت له وأنا ابعد جسمي عن تساقط الماء :ـ

ـ هيا انطلق .

× × × × × ×

كانت الطائرات رابضة تحت سقوف الملاجيء الكونكريتية . . وهي ترفع مقدماتها بشموخ . . واجنحتها مفروشة في فضاء الملجأ . . . والمراتب الفنيون وقد بدوا من تحتها وهم يعملون كخلية نحل . . . فرحين بملكتهم . . احسست ان كل واحد منهم عملاق وهو يحمل مع زملائه القنبرة الى حيث مكانها على الطائرة .

قلت لهم وانا امسك بطرف من القنبرة براحتي يدي وادفعها معهم الى مكانها :

ـ يجب ان ننتهي من التسليح في الساعة الرابعة والنصف . . . عندها سمعت من الطرف الثاني للملجأ احد الفنيين يتغنى باهزوجة شعبية،زملاؤه يرددونها من بعده . . . وهم يدفعون عربة القنابر الفارغة . . . كان نائب الضابط عدنان حسين قد رفع اصبعيه شارة النصر ، وهو يلوح لي بهما من بعيد . . عندها عرفت انهم قد انتهوا للتوّمن تسليح طائرتهم .

كانت المجموعة هذه قد تقدمت حيث كنت واقفاً قرب الطائرة وقبل ان

يقتربوا منا ليساعدوا المجموعة الثانية ، صاح اقدمها نائب الضابط مطشر :

ـ مشكورين . . . لقد انتهينا كذلك .

× × × × × ×

الساعة تشير الى الرابعة والربع عندما جاءني الملازم الاول نضال واخبرني قائلاً :

ـ سيدي . . . لقد انتهت مجموعتي من تحميل طائرات الملجأين الثالث والرابع .

كان منظره كمن خرج من النهر . . ملابسه وقد ابتلت ، وحذاؤه موحل . . .

قلت له بعد ان شكرته :

ـ انا ومجموعتي انتهينا كذلك من تحميل طائرات الملجأين الخامس والسادس .

عندما نظرت الى ساعتي ، احسست ان الوقت يهرب من بين ايدينا . . علينا ان نلحق به . . لا ندعه يفلت منا يجب ان نسبقه ، ربع ساعة وتنتهي المدة المقررة لتغيير حمولة الطائرات ، حتماً ان المجاميع الاخرى على وشك الانتهاء ، يجب ان . . . .

ـ سيدي الملازم الاول ضياء يطلبك على الهاتف .

توجهت مباشرة الى الهاتف المعلق على الحائط الكونكريتي للملجأ ، كنت اخشى ان يكون قد حدث ما يدعوه الى طلبي . . . رغم انني كنت واثقاً من ان رفاقي الضباط والمراتب يعملون بصورة جيدة . . . وانتباه عال . . . رفعت سماعة الهاتف :

ـ نعم ملازم اول ضياء .

ـ . . . . .

ـ نعم . . .

ـ . . . . . .

ـ شكراً ، الله يساعدكم .

كان الملازم الاول ضياء من الضباط الفنيين الجيدين الذي يستطيع ان يحل اسرار محركات الطائرات . . نشيطاً وذكياً . . شاباً في الخامسة والعشرين من عمره . . . وكذلك كان مصلحاً جيداً لمحركات السيارات التي يمتلكها رفاقه الضباط والمراتب .

وضعت سماعة الهاتف في مكانها ، نظرت الى ساعتي كانت عقاربها تشير الى الرابعة والعشرين دقيقة ، عندما سألت الملازم الاول (نضال) الذي مازال واقفاً بالقرب مني مستفسراً عن عدم اتصال الملازم الاول خالد بنا . . . عند انتهاء عمله ومجموعته . . ثم تابعت قائلاً :

ـ هيا بنا لنر .

× × × × × ×

كان الملازم الاول خالد ومجموعته واقفين قرب احدى الطائرات ، كانت جميع الطائرات الموجودة داخل الملجأ مسلحة بصورة كاملة ، اندهشت لوقوفه مع مجموعته وهم متحلقون حوله .

سمعت الملازم الاول (نضال) وهو ينادي عليه . . . فرأيته وهو ينسل من بين مجموعته ويتقدم نحونا . . . ادى التحية ، وقبل ان ينتهي من انزال يده بادرته قائلاً :

ـ ملازم اول خالد ، هل انتهيتم ؟

اجابني بثقة :

ـ نعم سيدي ، قبل عشر دقائق .

فسألته مندهشاً :

ـ ولماذا لم تخبرني بذلك .

اجابني قائلاً :

ـ سيدي ، ان الهاتف عاطل ، وقد ارسلت العريف (كاظم) لاخبارك بذلك .

عندها احسست بفرحة تسري مع برودة الهواء الى اعضاء جسمي ، اعادت لوجهي بعض الدماء التي فرت منه . . . نظرت الى ساعتي ، كانت عقاربها تقترب بتكتكاتها الخافتة لتشير الى الرابعة والنصف .

قلت له :

ـ شكراً ، لقد انتهينا جمعياً قبل الموعد المحدد .

× × × × × ×

كانت غرفتنا عبارة عن «كرفان» خشبي مقسم على قسمين ، وكان القسم المعد للجلوس يحوي على مجموعة من الأرائك التي كثيراً ما حولناها الى اسرة تترك لاجسادنا حرية التمدد عليها ، بعد الانتهاء من اعمالنا .

عندما دلفت الى داخل الكرفان ، وقبل ان اضع جسدي المتعب على احداها رن الهاتف ذو اللون الرصاصي ، عندها صاح الملازم الاول ضياء :

ـ خير ان شاء الله .

ثم دس رأسه تحت غطاء الرأس الملحق بقمصلته نظرت الى ساعة

يدي ، كانت تشير الى الخامسة الاربعاً ، رفعت سماعة الهاتف :

ـ الو . . . صباح الخير سيدي .

ـ . . . . .

ـ نعم سيدي ، كل شيء جاهز ، حاضر سيدي ، مع السلامة ، كان الصوت الذي حملته اسلاك الهاتف هوصوت آمر القاعدة . . مستفسراً عن الانتهاء من تحميل الطائرات .

اعدت السماعة الى مكانها ، وقبل ان افتح فمي لاقول شيئاً ، بادرني الملازم الاول نضال متسائلاً

ـ ها سيدي .

قلت له وانا اوجه كلامي للآخرين :

ـ في الساعة السادسة يجب ان تكون جميع الطائرات جاهزة للطيران ، في الساعة السادسة . . . انه واجب في عمق الاراضي الايرانية ، وقبل ان انهي كلامي رأيتهم يثبون من اماكنهم بنشاط وحماس ، وكان الملازم الاول ضياء الذي حسبته قد غفا انتصب واقفاً وهو يبتسم .

بعد ان سمعوا الأمر ، اندفعوا خارجين ، اصطدمت وجوههم بقطرات المطر الهادئة وهي تنث على الارض ، ونسيم بارد يمنح الجسد نشاطاً وحيوية ، ولون فضي ملأ الفضاء فبدت الملاجىء الكونكريتية مغسولة بمطر الليلة البارحة واخذت ابوابها الحديدية تفتح الى الخارج .

قبل ان اخرج من باب «الكرفان» نظرت الى اسفلت الشارع . . . كان مطبعاً ، رطباً . . . عندها قلت :

ـ المطر خير .

١٩٨٧/٢/١٨

الطيور تحلق عاليا ....

- ١ -

تحلقت حوله طيور بيضاء ، فتح عينيه على وسعهما ، كانت السماء اول مامـلأ بصره بها . . . بيضاء ناصعة كنديف القطن . . . عندها ادار بصره من حوله ، كانت هناك اسراب من حمام . . . ابيض الريش كالثلج . . احس بأجنحتها وهي ترفرف من حوله بخفة ورشاقة . . . حيث صنعت له جواً لم يألفه من قبل . . . نسمات باردة تخفق حول جسده الممدد الذي مازال يحتفظ بحرارته وهي تسري فيه كتيار هواء حار . . .

انعشه ذلك الرفيق الابيض . . . انتبه الى ان بسمته الصغيرة المعروف بها مازالت مرتسمة على شفتيه ، وقد احاطت بها من الاعلى شعرات خفيفة كزغب الطير وهي ترسم حدوداً لشارب منسق خطته يدفنان ماهر .

تساءل : ـ اين أنا ؟

لم يسمع لسؤاله جواباً . . حيث ارتسمت في تـلافيف تلك الذاكـرة القوية بعض صور عاشها قبل دقائق . . سمع صوت انفجار مدوٍّ . . وصوتاً آخر يطلب منه الهبوط بالمظلة . . ثم انفجاراً ، ودوياً . . . فضاء بلون الرماد وهو يحيط به . . . اندفع الى الاعلى . . . و . . .

كان كل ما يحيط به قد غدا أبيض ، لؤلؤاً منثوراً في فضاء واسع . . . اجنحة ترفرف . . نسمات هواء بارد . . . ثم . . . جمد جسده . . . كان كل شيء فيه قد هدأ . . . احس بسريان الدم يتوقف في عروقه التي ارتحل عنها نبضها الحار . . . .

عينان مفتوحتان على فضاء ابيض ، شعرات رأسه المنسدلة على جبينه البارد يلاعبها الرفيف الـذي صنعته اجنحـة تلك الحمامـات الجميلة . . .

بعدها ، احس بجسده يرتفع به . . . صور ملونه تتحرك في مساحة تلك الذاكرة القوية . . . تذكر جيداً . . . كان الانفجار قد حدث بطائرته بعد ان نفذ مع زملائه واجباً على قطعات العدو . . . انفجار دفع بكرسيه الى ان يطير به بعيداً عن اشلاء طائرته المنفجرة . . . احساس مدمر بانسحاب جسده الى الاسفل . . . اشياء بلا حدود . . . تكوينات افتقدت الوانها . . . ثم شيئاً ما ينفذ الى صدره . . . ظلام دامس . . . سواد قد امتلأت به صفحة مخفظة ذاكرته تلك . .

- ٢ -

فتح عينيه بدم متجمد ونبض ساكن ، وبرودة جسد قد رفرفت من حوله اجنحة طيور بيضاء . .

ارتفع جسده قليلاً ، قليلاً بهدوء وسلام . . نظر الى المكان الذي خلفه ، رأى شيئاً ما يتحرك ، شيئاً ما تفتقت عنه تلك الارض التي كان قد احتلها جسده قبل قليل . . . كان جسده قد بدأ يحلق به الى الاعلى ، بين رفرفة تلك الاجنحة البيضاء التي صنعت له وسادة هوائية حملته الى الاعلى . . . أمعن النظر جيداً . . . انشقت الارض عن عود اخضر ، راه وهو يرتفع قليلا عن الارض . . يسمو بزهو الى الاعلى . . كان جسده كذلك قد ارتفع بين رفرفة اجنحة الطيور . . . وكان ذلك العود يمتد بخضرته . . . بعدها أحس بدوي هائل . . . ثم ، تبرعم رأس ذلك العود . . . وردة حمراء تسكن هادئة في نهايته . . . عندها احس بحرارة جسده وهي تشق السكون الذي خيم عليه . . . سمع صوت دمه وهو يتدفق في عروقه التي عاد لها نبضها الحار . . . بينها كانت الطيور تصنع له برفرفة اجنحتها تلك الوسادة المخملية الناعمة . . . عندها اعاد نظره الى الاسفل . . . لم يرشيئاً ما . . . كان كل

شيء قد لاح له ابيض كرفيف تلك الحمامات البيضاء . . . وجسده ينام على فراش من ثلج ناعم .

انتبه الى احدى الحمامات وقد توقف رفيف جناحيها . . ثم مالبثت ان نطت من بين الجموع . . . انتفضت الى الاعلى ، فانتصبت فتاة بيضاء ، قمراً بجناحين خفيفين . . . مالت برأسها اليه ، وبسمتها قد تركت لعينيه ان تريا صفين من لؤلؤ ابيض وقد انتظما بين وردتين بلون الثلج .

همست له قائلة : - اهلاً بضيفنا . . .

لم يتفوه بحرف واحد . . . هزته المفاجأة . . . كانت عيناه قد انبهرتا بذلك الجمال الهادىء الذي انساب مع موسيقى صوتها الذي رفرف بين اذنيه ، قالت له !

- ها انت في جناتنا تطوف . . فاطلب ما تريد . .

التمعت عيناه بضوء وجهها الساطع . . . رفع كفاً احتوت راحتها على بضع قطرات من دم احمر . . . مدت هي يدها الى حيث كفه . . . لامس كفها كفه . . . حرك جفنيه . . . كانت نسمة هواء بارد قد حملت له اندهاش تلك اللحظات . . . رأى شفتيها قد تحولتا الى وردتين بلون الدم . . . همس لها بما يريد . . تركته ليراها وهي تحادث مجموعة الحمامات بحديث لم يسمع منه شيئاً . . . ثم ما لبثت ان انتفضت بجسمها الذي احس به يذوب بين بياض رفرفة اجنحة ما يحيط به . . . هبط جسده قليلاً قليلاً . . . كانت الوسادة الهوائية التي صنعتها رفرفة اجنحة الحمامات البيضاء تهبط به الى الاسفل بهدوء وسلام . . . وكان جسده ممدداً بسكون آمن . . . بسمة صغيرة على الشفتين . . . بقعة دم حمراء قد تلونت بها ملابسه في منطقة الصدر . . هدوء شامل . . . سكون . . . وبدأت رحلته الى حيث اراد . .

- ٣ -

كانت الارض قد امتلأت ببريق الشمس [illegible] طمح بورها امام عينيه . . . وكانت الحمامات البيضاء تحمل جسده [illegible] اجنحتها تصنع له جواً من الأمن والطمأنينة .

التقطت عيناه صوراً مشوشة لما على الارض [illegible] بعد لحظات بانت امام ناظريه كتل محدبة كبيرة . . . رآها [illegible] الارض . . . تملاّها جيداً . . . كان جسده يقترب بهدوء [illegible] عندها وجد أن أجساماً بألوان مرقطة تشبه اجسام الطيور قد [illegible] من تلك الكتل الكبيرة التي بلون الكونكريت وهي فارشة اجنحتها [illegible] ثم توقفت بانتظام كل اثنين امام واحدة من تلك الكتل الكبيرة المحدبة [illegible] الابواب الحديدية الصفراء . . . ثم رأى مجموعة من رجال يتحركون [illegible] واجساماً كبيرة تأخذ اشكال عجلات وهي تدنو منها . . . انتبه الى ان [illegible] الحمام الابيض مازالت تفرش لجسده سريراً ناعماً برفيف اجنحة [illegible] اخذت تدور به بين الكتل والاجسام التي تشبه اجسام الطيور بين [illegible] يتحرك بين هذه الاجسام . . تمعن جيداً في وجوهها . . . تذكر تلك الوجوه التي ألف صورتها في يوم ما . . . تساءل : - متى ؟ لم يجد الجواب .

كانت فيه رغبة في الحديث معهم . . . و[illegible] يضحكهم . . . لكنه احس ان صوته قد ضاع في داخل فمه . . . [illegible] يده الى واحد منهم . . . اراد ان يقول شيئاً ، أن يصيح . . . ولكن [illegible] صوته يضيع بين رفرفة اجنحه تلك الحمامات .

- ٤ -

بعد ان دارت به الحمامات برفيف اجنحتها [illegible] بين تلك التشكيلات التي امتلأت عيناه بصورها . . . سحبته [illegible] الى ارتفاع

عال . . . سارت به الى امام . . . كان بصره يمتد الى حيث ذلك الشارع الاسفلتي المتعرج . . ثم احس بجسده وقد تركت رعشته على شفتيه ابتسامة وضاءة . . . حدّث نفسه قائلاً :

- انها العجلة نفسها التي كانت تقلني في كل يوم مع . . . . مع . . . آه ، تذكرهم واحداً . . واحداً . . كانت تقله واياهم الى حيث تلك الاجسام الرابضة على الارض باجنحتها المفروشة . . . عندها بحث عن قائدة اسراب الحمام بين الاجنحة البيضاء المرفرفة . . لم يهتد اليها . . كان يريد ان يخبرها عن كل شيء . . . ان يقول لها ، ان هذه العجلة التي تسير على ذلك الشارع تحمل داخلها زملاءه الطيارين الذين يستعجلون الوقت للوصول الى تلك الطائرات التي ترفع مقدماتها بشموخ . . . كان يريد ان يقول لها ان هناك مكاناً فارغاً في تلك العجلة . . كان مكانه هو .

- ٥ -

دخلت به اسراب الاجنحة البيضاء المرفرفة ، تلك البناية الكبيرة التي قد تذكرها للتو . . . آه ، هكذا حدث نفسه . . . انها البناية نفسها التي كنا نرتاح فيها . . . [illegible] كيف انه خرج منها مع زملائه . . . ركبوا تلك العجلة ، أوصلتهم الى حيث الطائرات . . . امتطوا صهواتها . . . اغلقوا اغطية المقصورات . . . دوّروا المحركات . . . تحركت بهم . . . حلقت الى الاعلى ، وفي الوقت المحدد . . . رمت بحمولتها على قوات العدو . . . ثم صوت دوي وانفجار . . . . و . . . .

رأى احد العسكريين يقف ماسكاً بندقيته ، حياه ، لكن صوته لم يخرج من بين شفتيه . . . رأى في عيني ذلك العسكري ابتسامة جميلة فاضت بها

رموشه التي اختلجت بين رفيف تلك الاجنحة البيضاء .

كانت الحمامات البيضاء قد دخلت به الى قاعة كبيرة ... ارائك مرتبة ... لم يجد احداً ... بعض اجهزة التلفون ، تلفزيون ملون ... خرائط ... مكتبة صغيرة ... صندوق بواجهة زجاجية معلق على الحائط يحوي وسام الرافدين من الدرجة الاولى ومن النوع العسكري ... ثم لوحة كبيرة معلقة على الحائط ايضاً وقد امتدت على زجاجها الشفاف خطوط بالطول والعرض ... واسماء لزملائه الطيارين ... احس بجسده ينتفض .. لسعته نسمة باردة حملتها له رفرفة اجنحة طيوره البيضاء ... حماماته التي حملته الى هذا المكان ... الاجنحة التي انفرشت من تحته ومن حوله ... كان اسمه قد لاح له على تلك اللوحة بلون الشمس ... اشعاع يسطع منه ، ولكن هناك كلمة قد اضيفت له ... انفرجت شفتاه عن بسمة احس بها تحمل موسيقى فرح غمرته بلذة محببة ... كانت «شهيد» كلمة رددها بعد قراءة اسمه ... انتبه الى نفسه ، جسده المسجى بين رفيف تلك الاجنحة البيضاء ... كان كل شيء فيه قد تبدل ، كل شيء قد تحول ... صار جسداً باجنحة بيضاء ... وزغب ناعم ... نظر الى المنطقة القريبة من صدره ، كانت هناك ريشة حمراء قد نبتت كزهرة جميلة ... عندها احس بعينيه وهما ترسمان على ملامحها صورة ملونة فاحت بفرحة كموسيقى ليلة عرس .

- ٦ -

دخل زملاؤه ... رآهم وهم يدخلون ... كانت البسمة تنطبع على شفاههم ... تداخلت اصوات الفرح بينهم ... انتبه الى جميع الوجوه .. كانت ترنو اليه محدقة فيه بعيون فرحة وتقدير ، واجلال .

سمع احدهم يقول ، وهو يؤشر بيده الى حيث كان : - انها حمامة جميلة ، كيف دخلت هنا ؟ ثم نهض الجميع ... وقفوا متحلقين حيث مكانه ، نظر اليهم ... امتدت اكثر من يد ومسدت على ذلك الزغب الابيض ، احس بأيديهم تتحرك على جسده تحمل له دفء جميلاً ... فرحاً ، عرساً ... عندها ارتفعت به تلك الاجنحة البيضاء الى الاعلى .... حلقت به ... اخرجته من دوامة تلك الايدي ... خرجت به من باب البناية ، حيث رفرفة الاجنحة مع النسيم البارد ... رأى عسكرياً يؤدي التحية ... وعيون زملائه تتبعه حيث حلقت به تلك الاجنحة البيضاء في الجو ... احس بجسده ينطلق محلقاً ... العيون تتبعه الى فوق ... اشرأبت الاعناق ... كان هو يطير ، والعيون تطير ببصرها معه .

١٩٨٧/٣/١٠

لحظات قلقة

- ١ -

: - عمي ، هل اقدم لك العشاء ؟

لم يجبها

- ٢ -

لقد تأخر هذا اليوم خارج البيت . . . ليس من عادته ان يعود متأخراً - هكذا - بعد الساعة العاشرة .

منذ سنة ، بالضبط ، وهو يعود الى البيت قبل الساعة الثامنة ، ليرى ويسمع ، الاخبار في التلفاز . . . ومنذ ان توفيت عمتي - ام احمد - رحمها الله ، وهو هكذا ، اما هذه الليلة . . . الليلة فقط ، فقد كسر عادته تلك ، وعاد في الساعة العاشرة والربع . . . حتى نشرة الاخبار الثانية لم يرها معنا في البيت .

- ٣ -

دخلت البيت دون ان تحس بي . . . خفت أن أوقظ «مها» من نومها ان افزعها . . . فالساعة الآن العاشرة والربع . . .

فتحت باب الدار بالمفتاح الذي كنت احتفظ به . . انسللت الى الداخل بهدوء ، بعد ان اغلقت الباب الخشبي للبيت . . . ثم تسللت الى غرفة الجلوس .

كان صوت التلفاز ينقل حواراً اجنبياً لفيلم حربي . . . اما «مها» فمازالت يقظة الى الآن . . . وقد جلست على الارض بين العابها

الصغيرة . . . وعندما رأتني ، هبت واقفة وركضت نحوي . . . حملتها على صدري ، قبلتها من شعر رأسها . . . كان ناعماً فاحم السواد ، كشعر والدها احمد . . .

جلست على احدى الارائك ، بعد أن انزلتها على الارض لتعود مرة اخرى الى العابها .

نظرت اليها . . . كانت تعيش فرحاً غامراً بين العابها . اما أمها ، فقد جلست بانتباه الى التلفاز . . . حيتني ، بعد ان تأكدت هي من عدم تحيتي لها . . . لم أنتبه لذلك الا بعد ان حيتني هي . . .

سمعتها تسألني : -

- عمي ، هل اقدم لك العشاء ؟

- ٤ -

لماذا هو واجم هكذا ؟

لم أسمعه عندما فتح باب الدار . . . وعندما اغلقه . لقد فاجأني بدخوله الغرفة . . . لماذا لم يحيني ؟ ما الذي أخره لهذه الساعة ؟ لماذا لم يرد على سؤالي حول عشائه ؟ هل كان صوتي ضعيفاً فلم يسمعه ؟ أم انه . . . استغفر الله العظيم .

منذ ان ماتت عمتي ، وهو الأنيس لي ولابنتي «مها» خاصة في ساعات الليل ، ونحن نجلس لنشاهد برامج التلفاز وهي تنقل لنا أخبار المعارك . . . اما أبو «مها» فقد كان لايزورنا الا اثناء اجازاته الدورية . . . وقبل ان يعود لوحدته العسكرية ، اسمعه يوصي والده بنا ، فيرد عليه قائلاً : - انهن في

عيني الاثنتين .

لم أره من قبل بهذه الملامح الحزينة . . . هل حدث ما عكر عليه مزاجه ؟ هل تشاجر مع احد من اصحابه ؟ ! . . كلا ، كلا ، انه رجل كبير وعاقل . . . ولكن ، لماذا هو منزعج هذه الليلة ؟ .

هل حدث شيء لأبي «مها» ؟ .

استغفر الله . . . استغفر الله .

لقد غادرنا زوجي ابو «مها» ليلة أمس الأول الى وحدته بعد ان انهى اجازته الدورية بيننا . . . ولكن ، لماذا هو حزين ؟

× × × × ×

- ٥ -

هل اخبرها بما حدث ؟

والطفلة ، لماذا هي يقظة لحد الآن ؟ ! .

هاهي تدفع بسيارة صغيرة على أرض الغرفة التي فرشت بسجادة كبيرة . . . وهي فرحة بلعبتها .

ليس من عادتها ان تظل مستيقظة الى مثل هذا الوقت المتأخر . . .

هل تعمدت والدتها ان تبقيها معها حتى اعود بعد أن تأخرت عنهم ؟ .

ربما . . . ربما .

ولكن هل اخبرها ؟ هل اقول لها كل شيء ؟ ولكن كيف ؟ كيف اخبرها بما حدث ؟ اليست هذه شجاعة مني وانا جالس هكذا هادئاً ، اشاهد برامج التلفاز ، وكأن شيئاً لم يكن ؟ .

ربي اهدني الى الطريق الصواب .

هل اخبرها ؟

و «مهاء» لماذا لم تنم ؟ اليس من الأجدر ياحلوتي الصغيرة ان تنامي بعد ان لعبتِ كثيراً ؟ ولكن كيف ، كيف ابدأ معها ، كيف اخبرها ؟

هل اذهب انا لوحدي ؟ ام . . . . .

× × × × ×

- ٦ -

لماذا هو حزين ؟ هل أسأله ؟

عيناه يلتمع فيهما شيء لم أره من قبل . . . وشاربه بلون القطن ماذا حل به ؟.

فها هو امامي يرتجف كأن مرضاً اصاب شفتيه . . . هل هو مريض ؟.

معاذ الله .

لماذا يختلس النظر اليّ هكذا بين الحين والآخر ؟

حتماً انه لم يكن منتبها بصورة جيدة للفيلم .

ما الذي يدور بفكره هذه الساعة ؟.

فرأسه مازال غير مستقر في اي اتجاه . . . ما الذي يؤلمه ؟ هل أسأله ؟ .

× × × × ×

- ٧ -

- كلا ، لقد تعشيت في المطعم .

هل صدقتني ؟ .

ربما قبلت عذري ، ولكنها ، لماذا لم ترفع عينيها عن وجهي ؟ هل أحسّت بشيء مما في نفسي ؟ هل هي غاضبة منّي لانني تعشيت خارج البيت وتركتها مع ابنتها حتى هذه الساعة المتأخرة ؟ .

هل تعرف مابي الآن ؟ .

كيف اخبرها .؟. هل اقول لها : انني لم اكن جالساً في المقهى . . . ولم اتعش في المطعم ، ولم اقابل احداً من اصدقائي . . ؟

هل تصدقني ؟ .

هل أخبرها بالحقيقة ؟ .

و «مهاء» لماذا هي يقظة لحد الآن ، ألم تنامي ياحلوتي العزيزة ؟ .

× × × × ×

- ٨ -

لماذا هو يتحرك هكذا ؟ .

وما هذا القلق الذي بدا على ملامحه ؟

أسأله ؟

و «مهاء» ، لماذا اجلسها هكذا في حضنه؟ ! رفع يده ، مرر كفه على شعرها الفاحم السواد . . وضع شفتيه على جبينها ، قبلها . . . وهي مازالت ممسكة بلعبتها الصغيرة .

قال لها : ـ جدو . . .

كان صوته قد بدا متلجلجاً .

كركرت . . . ضحكت بفرح . . . شاركها ضحكها بشفتين مرتعشتين . . . رفعها بين ذراعيه الى الاعلى . . . حملها على صدره . . . قام بها . . .

الى اين هو ذاهب ؟ .

توجه بها الى باب البيت . . . هل سيأخذها الى الشارع ؟ ! فتح الباب . . .

كانت الطفلة ممسكة بلعبتها . . وهو ممسك بها بين ذراعيه على صدره . . . ثم . . . .

× × × × ×

- ٩ -

هل احست بقلقي؟ .

لقد تنبهت على نفسي جيداً ، كان كل شيء فيّ قد فضحني هل احست هي بذلك ؟ ولكن ، ما الحل ؟ .

جاء أحد مسؤولي المنظمة في المنطقة ، وطلب مني الحضور . . لم اجلس في المقهى .

عندما دخلتها ، كان هو بانتظاري ، وقال لي : ـ العم ابو احمد ، الرفيق المسؤول يطلب حضورك .

لم أسأله السبب ، ولم اقض وقتي جالساً في المقهى . . . فكثيراً ما كانوا يرسلون بطلبي . . . لم اقابل احداً من اصدقائي . . وكنت كثيراً ما احل لهم

بعض المشكلات المتعلقة بالمنطقة واهلها . . .

لم اشرب الشاي في المقهى . . . . ولم أسأله السبب ، وعندما شربت الشاي بعد ان جلست قرب مكتب المسؤول الحزبي للمنطقة . . . قدم لي سيكارة . . . وانا لم اتناول طعام العشاء لحد الآن . . .

اعتذرت لانني لا ادخن ، ولكنه الح عليّ . . . أخذتها منه . . . ومرارة العلقم في فمي . . . وضعتها على الطاولة الصغيرة التي امامي . . . يبس ريقي . . . دخن هو سيكارته ، ومازال طعمها في فمي مُرّاً .

قال :ـ صباحاً سيصل جثمان ابنك الشهيد .

لسعتني مرارة التبغ .

× × × × ×

- ١٠ -

انه صوت الباب يغلق . . .

دخل الغرفة . . .

كان هناك شيء ما يلتمع في عينيه . . . هل أسأله ؟ جلس على الاريكة . . . هل جاع ؟ .

كانت «مهاء» بين يديه غافية . . . تركها نائمة على ركبتيه . . . اخذ يهدهدها . . .

هل أسأله ؟ .

قام من مكانه . . . وضع «مهاء» على الارض . . . غطاها بيشماغه بعد

ان نزعه من رأسه . . فظهر شعره الاشيب أبيض كالقطن . . . لم افطن له من قبل . . . هل أسأله ؟ .

× × × × ×

- ١١ -

لن اخبرها . . .

يجب ان اتحمل الصدمة الاولى بنفسي ولوحدي .

- لماذا هي واجمة هكذا ؟ .

- لماذا هو ساكن هكذا ؟ .

- ماذا حدث لها ؟ .

- بماذا يفكر هو الآن ؟ انه حتماً سيقول ما عنده .

- لا . . . لا لن اخبرها .

- لماذا هو ينقل بصره بين اشياء الغرفة ، وعندما تلتقي عيناه بعيني يزوغ ببصره كأنه يبحث عن شيء آخر ؟ .

- لماذا هي تلاحقني بنظراتها . . . الم تكن تتابع الفيلم ؟ .

- ١٢ -

كانت عيناها قد لمع فيهما شيء مترجرج . . . ومشت . . . تحركت قليلاً على الاريكة . . . رفعت يدها الى عينيها . . . بدأ هو ينشج . . . ازداد صوته نحيباً . . . طفحت دمعة على خدها البارد . . . احست بحرارتها وهي

تلسع شيئاً من برودة خدها . . . ثم تعالى نشيجهما كانت هناك ابتسامة وضاءة على شفتي «مها» وهي تحلم بـ «الغزيّل»* وهو يخبرها بموت امها .

١٩٨٧/٣/٢٢

ملاحظة : - في الموروث الشعبي ، ان الطفل عندما يضحك وهو نائم يقال ان «الغزيّل» - وهي دويبة صغيرة جميلة الالوان .

قد تخبره بموت امه ، لهذا فهو يضحك هازئاً منه لانه قبل ان ينام كان يرضع من ثديها .

اما عندما يعبس وجهه ، وهو نائم ، فان ذلك يدل على ان «الغزيّل» قد اخبره بموت والده . . . وقد يصدق الطفل بذلك ، لذا ترتسم على وجهه علامات العبوس والتجهم .

وفي الاحلام يقال ، ان من يضحك ، فأنه سيبكي عندما يستيقظ .

١٩٨٧/٣/٢٢

القرار

بعملية حسابية بسيطة ، حدد نائب الضابط محمود يوم انتهاء العمل على الطائرة ، وتجهيزها لطيران الفحص الجوي .

قال مع نفسه : ـ ليس هذا اليوم بالطبع ، لانه في صباح هذا اليوم بالضبط تسلمتها وجبة العمل التي اعمل ضمنها . . .

وبعد لحظة قصيرة ، استطرد مع نفسه قائلاً : ـ وليس في الغد على أي حال . . . ولكنه ـ حتماً اكد مع نفسه ـ سيكون بعد غد صباحاً ، ستكون الطائرة جاهزة لطيران الفحص الجوي .

كانت الطائرة التي مازالت تشغل بال نائب الضابط محمود ، قد أدخلت الى الجناح الفنيّ لغرض اجراء عمليات الفحص الدوري عليها ، وكان ذلك في صباح هذا اليوم . . . حيث بدأ المراتب الفنيون يعملون على اجراء الفحوصات الدورية عليها . .

إذن ، حدث نفسه بعد اجراء تلك الحسابات : ـ سوف اتصل بهم في الغد صباحاً بوساطة الهاتف . . . سأخبرهم بكل التفاصيل .

كانت الساعة تشير الى الثانية بعد الظهر عندما نظر اليها محمود . . . فيما كانت السيارة الصغيرة التي يشاركه اربعة ركاب آخرون الجلوس داخلها بعد أن أقلته من قرب وحدته العسكرية . . . منطلقة بسرعة عاليه على هذا الطريق الاسفلتي الذي كثيراً ما قطعه ذهاباً وإياباً بعد ان يضع نموذج الاجازة الدورية في جيبه ، ويعد حقيبته الصغيرة حيث يضع فيها بعضاً من الهدايا لابنته الصغيرة «أسيل» ولأبن اخيه «مهند» . . ثم يودع رفاقه .

اما اليوم ، قبل ساعتين تقريباً لم تسنح له الفرصة لوداعهم . . . وها هو الآن ينظر من خلال زجاج نافذة السيارة الى جانبي الطريق حيث امتدت

حقول صفراء كبريق الذهب ، ولمح من بعيد آلة حصاد تعمل في احد الحقول .

كان كعادته دوماً ، يحب الجلوس قرب النافذة . . . ولا يهم ان كانت شمس الظهيرة تضرب جانباً من جسمه المرتكن على باب السيارة ، بحرارتها . . .

كان يغلق النافذة ، ويرسل بصره الى حيث تلك المساحات الخضراء او الصفراء من حقول الحنطة الشاسعة . . . وعندما يمتلىء الفضاء الداخلي للسيارة بدخان سيكائر المسافرين ، كان يفتح زجاج النافذة قليلاً ، فهو لا يدخن ، ويكره التدخين داخل السيارة اثناء السفر ، وهو لاينام مهما طال الطريق ، لانه ، وكمن يبرر ذلك ، لا يريد ان تفوته مثل هذه المناظر الجميلة . . . اما الآن ، فقد وجدت السيكارة التي اشترى علبة كاملة منها من كراج السيارات ، طريقها الى فمه . . . وبدون لذة اخذ يملأ فمه بالدخان . . . ويقذف به الى خارج السيارة بعصبية وانزعاج ، حيث احس بانقباض في صدره لم يبارحه مذ ركب هذه السيارة .

سأل نائب الضابط محمود نفسه بعد أن اشعل له سيكارة ثالثة : ـ

ـ هل يعود اليهم ؟ ام انه من الافضل ان يتصل بهم هاتفياً بعد ان يصل الى بيته ؟ .

جفل عندما نطق بكلمة «بيت» . . . تساءل : ـ اي بيت ذاك الذي سأصل اليه . . ؟ حتماً لن اجد الفرصة التي تمكنني من الاتصال بهم . . . وأخي . . ؟ ! آه . . . هل مازال بينهم جسداً مسجى ، لاحياة . . . لانبض . . . لادم . . . لا . . . هل اعود الى وحدتي ؟ .

تناثرت الاسئلة على تفكيره متساقطة وهي تطرق صفحة رأسه من الداخل وكأنها حبات صلبة تنفرط من بين اصابع طفل . . . كانت الاسئلة تلك وكأنها تريد أن تستدرجه لايجاد حل للمشكلة التي اوقع نفسه بها . . . ولكن من اين لي الفكر الصافي ـ اكد لنفسه ـ فقد تشوش الفكر ، وتاه العقل . . . وانت مسجّى هناك بين الناس . . . بلا روح . . ولانبض ، ولادم . . . آه ياخي ، ماذا سيكون الحال لو ان مجموعتي قد انهت عملها على الطائرة هذا المساء ؟ ماذا سيكون الحال لو ان الطائرة طارت صباح الغد وفيها ذلك «المقل» اللعين ؟ ماذا دهاني وقتها ؟ غبي كيف نسيته . . . كيف . . . كيف ؟ .

× × × × ×

ـ نائب ضابط محمود .

ـ نعم . . .

ـ ضابط التوجيه السياسي يطلب حضورك امامه فوراً .

هذا ما اخبره به احد زملائه . . . وذهب . . . ذهب دون ان يسمع منه جواباً .

وقتها ، ياأخي . . . لم ارفع رأسي . . . كنت اعمل على الطائرة . قلت مع نفسي : ـ سأنتهي من عملي واذهب اليه . . . خمس دقائق فقط ، يجب ان انتهي من تركيب هذا الجهاز اللعين الذي اهدر من وقتي اكثر من ساعة لتركيبه لوجود خلل في اماكن التثبيت . . . ولكن ماذا يريد مني ضابط التوجيه السياسي ؟ ـ سألت نفسي . . . لم يسبق له ان طلبني ولو لمرة واحدة ، هل حدث مادعاه الى طلبي ؟ .

× × × ×

ـ نائب ضابط محمود . . . .

ـ نعم .

نظرت الى مصدر الصوت هذه المرة . . . كان ضابط التوجيه السياسي نفسه ، واقفاً قرب مقدمة الطائرة التي اعمل عليها . . . كان ينظر اليَّ نظرات لم اقرأ فيها شيئاً محدداً . . . ولكنني وجدته يدير رأسه بعد ان التقت عيناي بعينيه مباشرة .

تركت الجهاز . . . نزلت من ظهر الطائرة . . . لم اكن أعرف انني لن اعود اليها مرة اخرى هذا اليوم . . . قلت مع نفسي : ربما طلبني لحاجة ما . . .

سحبني من يدي وكأنه يريد أن يسرني بشيء ما . . . خرج بي من الملجأ الكونكريتي الكبير الذي ارتكنت في احدى زواياهُ الطائرة التي اعمل عليها . . . اركبني معه العجلة العسكرية . . . و . . . .

قال كل ما يجب ان يقال . . . .

لم اتمالك نفسي . . . بدت لي صور الاشياء من خلال زجاج العجلة وقد تشوهت ملامحها امام عيني . . . احسست ان هناك في جسمي ، وبين شراييني قد توقف شيء ما فجأة . . . برودة في اصابع يدي . . . صرخت ، هل استشهد أخي حقاً ؟

قال لي وقد بدا الالم واضحاً على ملامح وجهه : ـ انك رجل مبدأ . . . رجل شجاع . . .

نزلت قطرة دمع على خدي الذي حلقته صباحاً . . . . . احسست بها وهي تكوي صفحته . .

قال : ـ أرجو ان تكون قوياً . . .

سقطت دمعة اخرى ، حسبتها سكيناً تشق الجلد وتنغرس في لحم وجهي بنصل حاد حام . . .

قال : ـ ان أخاك بطل شجاع . . .

احسست بشيء ما يوخز جنبي في منطقة القلب . . .

قال : ـ ان الشهداء احياء يعيشون بيننا . . .

عندها لم اتمالك نفسي . . .

قال : ـ سيواجه ربا كريماً .

بكيت . . .

اما هو فقد سكت . . .

كان في وجهه حزن تبينته من بين دموعي . . . تركني ابكي . . . احترم بكائي . . . وعندما انتهيت من ذلك البكاء اللذيذ . . . قال لي بعد ان أخذ كفي بين كفيه : ـ البقاء في حياتك .

شكرته . . . قلت له : ـ سيدي ، لقد استطعت ان تزيل عن نفسي مفاجأة الصدمة الاولى . . . كنت كريماً معي . . . كانت كلماتك بلسماً للجرح الذي احدثه استشهاد أخي . . . انك ـ ياسيدي ـ لم تعرف أخي . . . انه ليس أخي فحسب . . . انه اخي وابي وامي . . . ولكن . . . آه . . . ياسيدي . . . ان ثمن الحياة غال جداً . . . أن تعيش بسلام يعني ان تدفع اغلى ما عندك . . . ان تعيش بشرف أو ان تدفع حياتك في سبيل هذا الشرف . . . في سبيل المبادىء التي تؤمن بها . . . المبادىء التي توصلك الى الحياة . . . رحمه الله . . . لقد كان لي الاب والاخ والام .

× × × × ×

مسح عن خده بعض قطرات من الدمع وجدت طريقها اليه . . . فيما كانت السيارة تشق طريقها . . . والركاب الثلاثة الاخرون يغطون في نوم قلق . . . اما الراكب الذي بالقرب منه ، فقد راح يكابد نعاساً اثقل جفنيه والسيكارة بين اصابع يده وقد احترق ما فيها من تبغ . . . فلم يستطع ان يسرق من بين حركة السيارة اغفاءة له .

نظر اليه محمود مشفقاً . . . ولم يشأ ان يحدثه . . . بل راح بصره مرة اخرى الى جانب الطريق . . . ومع نفسه تساءل : ـ هل اعود ؟

عادت الاسئلة من جديد تطرق تلافيف فكره المشوش . . . فكر . . . واخي ؟ .

ـ اعرف انهم لن يدفنوه حتى أصل اليهم . . . ولكن «المفل» اللعين . . . آه . . . سكين حادة تجوس في احشائي . .

كانت الحرقة قد أحس بها مع كلماته وهي تنغرس في فمه وبلعومه الذي جف كلياً . . . مرارة ملأت فمه . . . سائل لزج كثيف اختلط مع دخان السيكارة ، فأصبح لسانه خشبة جافة لاحياة فيها .

تنهد مع نفسه قائلاً : ـ حتماً انهم ينتظرون وصولي اليهم . . . ليس له غيري . . . و«المفل» . . ؟ والطائرة . . . وطيرانها ؟ . . . نصال حادة تنغرس في احشائي . . . أحس بها ، لهيب نار حامية تحرق اعصابي . . . هل كان خطأ مني عندما نسيته ؟ .

لم اكن اعرف بأنني لن اعود الى عملي مرة اخرى . . . ولكن آه . . . ياسيدي . . . لو تأخرت قليلاً . . . خمس دقائق فقط لما حدث كل هذا . . . دقائق قليلة وانتهي من عملي ياسيدي ماذا لو لم استطع الاتصال بهم ؟ .

× × × × ×

ها ، هل تتحدث معي ؟ .

ـ ها . . .

اجفله صوت الراكب . . . انتبه الى نفسه ، كان تفكيره قد وصل الى سمع الشخص الجالس بالقرب منه . . . اذن فقد سمع الركاب حديثي . . . حتماً انه سيقول عني مجنون . . . ليقل ما يقول . . . ربما جننت حقاً . . . كيف اترك ذلك «المفل» اللعين . . . لماذا ياسيدي تاتيني في تلك اللحظة بالذات ؟ .

لماذا تطلبني ، لماذا . . . لماذا ؟ .

ـ ستطير الطائرة ياسيدي ، وذاك «المفل» اللعين مزروع في احشائها . . .

كارثة ، ستقع ياسيدي . . . واخي مازال هناك جسداً مسجّى ينتظر عودة اخيه الذي لن يراه بعد الآن . . . اخوه الذي سيدفنه بيديه . . و«مهند» ماذا سيفعل . ؟ . ما الذي يستطيعه ذلك الطفل الصغير ؟ .

آه ياصغيرنا العزيز . . . لقد استشهد والدك . . . هل تريد أن تراه ؟ . . .

أزحْ عن وجهه ذلك الغطاء الابيض . . . ارفع كفنه البارد . . . انظر . . . انظر ياصغيري الى وجه والدك الشهيد ، الى هاتين العينين . . . فماذا ترى فيهما ؟ انظر ياصغيري . . . حتماً انك سترى نفسك في واحدة منهما وتراني في الأخرى . . . هذا هو والدك . . . قلبه نصفان . . . نصف لي ونصف لك . . . اترى تلك الهالة المضيئة المحيطة بوجهه . . . انها هالة القديسين والشهداء . . . اتسأل ما هذا ؟؟ ! .

آه ياصغيري . . . انه «المفل» اللعين . . . ذلك الذي انغرس في قلبي . . . «المفل» الذي سيؤدي الى الكارثة . . . كارثة . . . . كارثة . . .

ـ هل تشكو من شيء ياأخي؟ .

كان الذي يجلس بالقرب منه قد هزه من كتفيه ، لقد سمع حديثه مع نفسه .. سمع صوت افكاره العالية ... انتبه اليه ، وقبل ان يقول له : آسف ، رأى من خلال الزجاج الامامي للسيارة التي تقله .. سيارة تمرق في الجانب الآخر من الـطريق وهي تحمـل نعش شهيـد ملفـوف بـالعلم العراقي ... عندها صاح بالسائق : ـ قف .

ارتجت السيارة الصغيرة على الطريق ... قادها سائقها الى الكتف الترابي للشارع ... اوقفهـا فجأة ... ادار رأسـه الى حيث كان محمود جالساً ... وقبل ان يسأله السبب ، كان محمود قد فتح الباب ونزل .

قال لهم معتذراً : ـ ارجو المعذرة ، لقد نسيت ألـ .....

اراد أن يقـول لهم انـه نسي «المفـل» في الـطائـرة ، وسـوف تـطير الطائرة ... وستقع الكارثة .... لكنه اعتذر بلباقة ... وودعهم بعد ان اخذ حقيبته الصغيرة .

كانت السيارة قد تحركت من امامه ، عندها رفع كفه ومسح بعض قطرات من دمع وجدت طريقها الى خده ... احس بلفحة هواء بارد تمسح حرارة تلك القطرات ... تنفس بعمق ... أحس برجفة باردة تصعد من بين ضلوعه وتدخل قلبه ... عندها عبر الى الجانب الآخر من الطريق .. ينتظر سيارة تعيده الى وحدته .

١٩٨٧/٣/٢٠

الشاحنة

ـ ١ ـ

كان الفجر لتوه قد بدأ يرسم حواليه شفافية رمادية محببة ... وضياء الشمس لم يشع بعد ، وبدأت الاشياء من حوله تتجسم بكياناتها ... عند ذاك استطاع الجندي الاول علي حسن ان يميز عن بعد قريب كل شيء ... وقتها أحس بقوة جسدية وصفاء ذهن تام يحتويانه بعد ساعتين من نوم عميق سمح بها مساعد وحدته بعد ان حددله مهمته ووقت الانطلاق .

ادار بصره حول الشاحنة المركونة في شق احدثه احد «الشفلات» في الارض .

كان ، ولثوان قليلة قد انتهى من عملية ربط الغطاء النسيجي حول جوانب الشاحنة ، بعد ان تأكد من انتهاء رفاقه الجنود من وضع آخر صندوق خشبي فيها ... دار دورة كاملة حول الشاحنة ، حيث لم يترك لبصره حرية الزوغان الى اية جهة ما ... اراد ان يطمئن للمرة الاخيرة على ربط الحمولة جيداً بالغطاء النسيجي للشاحنة ، بعدها وضع خوذته المعـدنية عـلى رأسه واحكم وضعها جيداً ، ثم نظر الى أعلى كُمّ قميصه الخاكي ليتأكد جيداً من وجود الخيط الاسود الرفيع في مكانه ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة ، ثم قال مخاطباً شاحنته التي لم تزل تجثم في مكانها : ـ

ـ لولاك ياحبيبتي ، لما حصلت على هذه الترقية من القائد ، لما وضعت هذا الخيط الاسـود على كمّ قيمصي ، وانـا حديث الخـدمة ... انـه التكريم يامحبوبتي ...

× × × × × ×

-٢-

كانت الارض امامه منبسطة والطريق مفتوح ، اسود ، حديث التعبيد .

ادار زر المذياع الصغير الذي كان يحتفظ به مربوطاً على واقية الشمس الامامية ، فانبسط امام سمعه صوت رخيم تحمل نغماته آياً من القرآن الكريم . . . نظر الى ساعته ، كانت عقاربها تشير الى السادسة صباحاً . .

قال مع نفسه : ـ يجب ان اصل اليهم بعد نصف ساعة . . . انهم ـ الآن ـ ينتظرونني . . . يجب ان اوصل هذه الصناديق الخضراء اليهم . . . يا الله . . . قالها بصوت خفيف ، وحرك جسمه على مقعد الشاحنة . . . انهم ينتظروننا ياعزيزتي . . . ثم دفع بقدمه الى الامام ضاغطاً على دواسة الوقود ، فأحس بالشاحنة تندفع على الاسفلت الاسود بسرعة ، الى الامام .

كانت روحه تتسمع الى صوت المقرىء بخشوع . . . حيث سرت في جسمه قشعريرة احس بها تصعد من اطراف قدميه الى جلدة رأسه كأنها تيار كهربائي خفيف . . . عندها لم يتمالك نفسه فصاح بصوت عال : ـ ياالله . . . وضغط على دواسة الوقود ، فأحس بالشاحنة تطير به .

قال مع نفسه مؤكداً : ـ يجب ان تصل الصناديق اليهم بسرعة . . . وفي الوقت المحدد . . انهم بحاجة لها ويجب ان يصل العتاد الى الخطوط الامامية بسرعة وحذر . . . اعتمد عليك . . » هكذا خاطبه مساعد الوحدة . . .

لم يتفوه بكلمة . . . ادى التحية العسكرية بحماس وانتظام وقال : ـ نعم سيدي .

× × × × ×

-٣-

كانت الشاحنه ترسل بضجيج محركها الى اذنيه عندها سمع خشخشة تأتيه من المذياع . . .

لم يستطع ان يلتقط صوت مقرىء القرآن بصورة جيدة . . . كان صوت الخشخشة يعلو على صوت المقرىء . . . حرك زر المذياع يميناً وشمالاً دون جدوى . . . قال مع نفسه كمن يبرر فعلاً ما : ـ ربما تأثر ببعض ذبذبات الاجهزة . . . لقد شوشت عليه . . .

عندها اغلق المذياع ، فسمع صوت ازيز يأتيه من بعيد . . . اخرج رأسه من نافذة الشاحنة قليلاً ، مد بصره الى الامام . . . نظر نحو السماء ، هتف بصوت عال : ـ إنها طائرة معادية . . . هيا يامحبوبتي سيري على بركة الله . . . ثم بصوت خفيض : ـ يا الله . . . وضغط بكل قوته على دواسة الوقود .

كان صوت ازيزها يقترب منه . . . فرآها من خلال الزجاج الامامي . . . انها تقترب منه بسرعة . . . خمّن مع نفسه انها بعد ثوان ستكون فوق الشاحنة . . .

كانت الطائرة تقترب منه بسرعة فائقة خال انها ستصطدم بالشاحنة . . . كانت المسافة بينها وبين الشاحنة قليلة جداً عندها صاح

بصوت عال : ـ هيا يامحبوبتي . . . هيا . . . يا الله . . وادار مقود الشاحنة نحو اليسار ، فبانت من امامه الارض صفراء جرداء . . . عندها سمع صوت انفجار من جهة اليمين هتف : ـ الحمد لله . . . لقد افلتنا منه . . . ولكنه سيعود حتماً . . . سيعود هذا المعتوه .

× × × × ×

-٤-

ادار زر المذياع ، فانساب صوت مقرىء القرآن صافياً وهو يرتل تلاوة الصباح قال مع نفسه : ـ الحمد لله . . لقد افلتنا منه . . لولاك ياحبيبتي لاصبحنا رماداً بعد نار . . . ثم ادار مقود الشاحنة مرة اخرى نحو اليمين . . . وضغط على دواسة الوقود ، فانسابت الشاحنة على الارض الرملية . . . حتى اعتلت الطريق المعبد . . .

كان اسفلت الشارع امامه نظيفاً حديث التعبيد . . . وكان صوت المقرىء يأتيه صافياً ، وفجأة تقطع الصوت . . . سمع مرة اخرى صوت الخشخشة ، عندها سمع ازيز الطائرة يأتيه من بعيد . . . نظر الى المرآة الجانبية للشاحنة ، لم ير شيئاً سوى لون السماء . . . ازداد الازيز . . . ثبت نظره على المرآة ، حيث كانت صفحتها الملساء تعكس لعينيه زرقة السماء ، قال مع نفسه : ـ انني اعرف بانه سيعود . . . سيعود هذا المعتوه . . . لكنني لن اسمح له بأن يصيب الشاحنة . . . سترى ايها اللعين ذلك . . .

كان الازيز يعلو شيئاً فشيئاً . . . عندها تراءى له شبح اسود منطبع على صفحة المرآة الجانبية . . . بدا الشبح يزيح عن صفحتها بعضاً من زرقة

السماء . . . وكان الازيز يزداد قوة . . . خمّن مع نفسه بأن الطائرة آتية من الخلف . . . كان شبحها المرتسم على صفحة المرآة يكبر . . . ثم اصبح يغطي نصفها . . . ادار بكل قوته مقود الشاحنة الى اقصى اليمين ، وبقدم ثابتة قوية ضغط على دواسة الوقود بقوة . . . عندها سمع صوت انفجار يأتيه من جهة اليسار . . . رفع قدمه من على الدواسة وضغط على دواسة الوقوف ، فأحس بالشاحنة ترتج من تحته بقوة ، وتسحبه الى الامام ثم تدفع به الى الخلف وتقف . . .

نظر الى ما حوله ، كانت الشاحنة قد ابتعدت كثيراً عن الطريق المعبد . . . نظر الى جهة اليسار ، لمح عن بُعد دخاناً يتصاعد من حفرة كبيرة احدثها سقوط الطائرة . .

ضرب بكفه على مقود الشاحنة وابتسم . . . ثم خاطبها قائلاً : ـ لقد نجونا ايتها العزيزة . . . لم ينل منا هذا المجنون ، لقد علمته قواتنا درساً لن ينساه . . . انها دقائق وستكون هذه الصناديق في الخطوط الامامية حيث رفاقنا يربضون هناك . .

× × × × ×

١٩٨١/٤/٢٢

ابتدأت الفكرة عنده هكذا . . . .

لم يعرف ما اذا كان سيحقق شيئاً ما . . . كل مايعرفه ، عن نفسه ، انه مقعد . . . مشلول الساقين . . . يقرأ جريدة اليوم ، وبعض المجلات العربية «باستمرار» . . . حيث يحصل عليها من اخيه الذي يصغره بسنين .

كاد ـ لولا هذا الشلل اللعين ـ ان يصبح معلماً منذ سنين ، لكن موت ساقيه ، افقده كل حماس في القراءة ، ومتابعة دروسه في دار المعلمين .

لقد وقع عليه هذا الشلل ، كالصاعقة ، فأمات في نفسه كل جذوة المتابعة والدرس . . . ولم ينفع معه مالقيه من دعم ، وما سمعه من كلمات تشجيع من والديه واخوته ، مثلما لم تنفع معه ادوية الاطباء وعلاجهم الطبيعي المستمر .

هكذا بدأت عنده الفكرة . . .

كان يقرأ قصة تتحدث عن اجواء الحرب ، بطلها واحد من جنود العراق ، حيث تعرّف اليه من خلال تلك الكلمات والجمل التي شكلها الكاتب فاخذت تنبض بالدم والحياة . . .

«كانت الشظية سماً قاتلاً . . . لم يعرف ، ما إذا كانت ساقه قد بترت بسبب هذه الشظية ام انها مازالت مربوطة بجسمه المتعب . . .

كل الذي يعرفه ، انه قد مضى عليه اكثر من ساعة ، وهو يحاول ان يزيل الركام عن نصف جسده الاسفل ، كانت القنبلة قد هدمت كل شيء . . احالت الموضع الى ركام ، ركام اسود ، مسموم . . . ولكنه استطاع ان ينهي عمله . . . فكان اول ماعرفه ، هو ان ساقه اليسرى لم يحس بوجودها .

رفع رأسه الممتد باستقامة جسمه الى اعلى قليلاً . . . كانت ساقه مازالت موجودة حيث هي . . . كل شيء حولها قد تمزق . . . فلم يبق من سرواله سوى خرق ممزقة ، ملونة بالدم والتراب . . .

كان كل شيء فيه قد تمزق . . . حاول ان يرفعها ، فلم يستطع . . . لقد مات فيها كل شيء . . . فندت من فمه آهة قوية . . .» .

آه . . . اللعنة على هذا الشلل . . .

رمى الجريدة على المنضدة الصغيرة القابعة الى يسار سريره . . . حاول ان ينهض نصف جسده الاعلى من الفراش ، اعتمد على مرفقيه . . . رفع ساقه اليمنى محاولاً انزالها من على السرير . . . لامست بلاطات ارضية الغرفة . . . «أحس» ببرودة الارضية وبلذة تسري في جسمه ، ـ هكذا تخيل ـ ولكم لسعته حرارة هذا البلاط في الصيف ، واقشعر جسده لبرودته في الشتاء . . . اما الآن . . . فاللعنة على هذا الشلل الذي امات تلك اللذة .

انزل ساقه الاخرى . . . رفع عكازتيه المعدنيتين الى استقامة جسمه . . . وضعهما تحت ابطيه . . . وارسل بحافاتها السفلية المتآكلة الى الامام بتعاقب .

تقدم الى نافذة غرفته . . . ازاح ستارتها ، فتح ظفتيها باتساعهما . . . هبت عليه موجة هواء بارد من حديقة بيتهم . . . كانت موجة الهواء تفوح منها رائحة الزهور التي زرعها ابن اخيه امام النافذة . . .

امتد بصره الى امام . . . عبر سياج البيت . . . كان الشارع يضج بحركة السيارات والمارة . . .

لمح على الرصيف المقابل فتاة تسير الى جنب شاب يرتدي البزة

العسكرية . . . «تذكر صورة اخيه العسكري ببزته الخاكية اللون . . . والى جنبه جلس هو على الكرسي المتحرك . . . كانت بزة اخيه قد بدت نظيفة ومكوية . . . وكان هو قد رفع رأسه واداره الى حيث وقف «اخوه» كانوا في حديث ود ، تمنى لو استطاع ان يسمع بعضاً منه ، لو يسمع ما يقوله هذا العسكري الشاب الى فتاته هذه . . . ربما كانت اخته ، زوجته ، حبيبته . . . وكان مزهواً ببزته العسكرية ، وبفتاته ، وبسمته التي ملأت فمه . . .

المهم انه احس بأن كل شيء فيما بينهما ينم عن انسجام وودّ . . . ابتسم ، ثم عاد الى سريره .

جلس على طرفه ، مدّ يده الى المنضدة . . . اخذ منها بعض اوراق بيضاء كانت مركونة عليها . . . سحب قلماً جافاً من بين مجموعة من الاقلام . . . ثم جرّ جسمه الى طرف السرير الآخر . . . اتكأ على حائط الغرفة المغلف باوراق ملونة ، بعد ان وضع وسادته خلف ظهره . . . ثم أخذ ينظر الى بياض الاوراق التي اصبحت بين يديه ، ثم لمّ ساقيه تحت جسمه ، بعد ان سحبهما بيديه . . . حرك القلم على الورق . . . كان . . .

«الليل قد مد بظلامه الحالك من حواليه . . . حاول ان يرفع جسمه الى الاعلى . . . ان يقف على ساقيه ، لم يستطع ذلك . . . خانته قواه ، ام خانته ساقاه ؟ ! . لم يحس بهما . . . مد يده عليهما . . . اللعنة . . . انهما موجودتان ، بحث عن شيء ما ليتكيء عليه ، فلم يجد شيئاً في الظلام الدامس . . . تحسس بيديه المنطقة التي تحيط بجسمه ، احس بشيء صلب يصطدم باطراف أصابعه . . . حرك جسمه نحو ذلك الشيء . . . كان انبوباً حديدياً . . . سحبه اليه . . . حاول ان ينهض بمساعدته . . . ركز ساقه السليمة على الارض . . . امسك بكفيه الانبوب ، ونهض . . .»

كان القلم بين اصابعه هادئاً بصمت . . . فيما كان نظره مزروعاً في بياض الاوراق . . . فكر لو انه ينتهي من هذا العذاب . . ان يكتب الكلمة الاولى . . . الكلمة الاولى فقط لهان الامر عليه . . . لتحرك القلم ، وملأ هذه الاوراق .

«لو يعرف الآن ماذا يفعل ، هل يظلّ واقفاً فوق ركام هذا الملجأ ؟ هل يتحرك ؟ الى اين . . . ؟ اين هم رفاقه ، من سلم منهم ومن استشهد ؟ . . هل تركوه . . . لو يعرف الى اين اتجهوا ؟ ! » .

لا يعرف كيف يبدأ الكتابة . . . فهي المرة الاولى التي يحس فيها ان هناك ما يدفعه الى الكتابة ، طاقة كبيرة يحسها تشده الى ان يكتب شيئاً . . . لو يبدأ فقط ، الكلمة الاولى ، وبعدها سيجري القلم على الورقة البيضاء خفيفاً ، وسهلاً .

ان كل قصة ـ كان يحس بذلك ـ يقرأها عن اجواء الحرب ، هي قصته التي سيكتبها . . . انها قصته هو . . . انه المسؤول عن كل كلمه فيها ، وكل جملة ، وعلامة . . . ولكنه ود ان يجعل من كلمته اداة لكتابة قصة تضاف الى تلك القصص . . . ان يكتب . . . ان ينقل ما في نفسه من احاسيس ومشاعر ، ان ينقل الى الورق كل نبض القلب ، وكل اندفاع الدم في عروقه وشرايينه ذلك الوجل الذي يحسه وهو يستمع او يقرأ عن اخبار الحرب . . . عن الانتصارات . . . عن الرجال الابطال . . . عن اخيه المقاتل وابنه الذي يسقي الازهار تحت شرفة نافذة غرفته .

فهو لا يريد منها ان تكون صالحة للنشر . . . كان المهم عنده ان يكتب . . . ويكتب ، يحيل تلك العذابات التي تمزق كيانه الى مسرات

تتوزعها ايدي الابطال . . . كان كل شيء فيه يدفعه الى ذلك . . . هذه النسمات الباردة التي تهب عليه من نافذة الغرفة معطرة بأريج الزهور . . . صورة اخيه المعلقة على الجدار ببزته العسكرية وهو ينتصب مزهواً على دبابة محترقة للعدو . . . ابتسامة الرفيق القائد صدام حسين وهو يقف قرب مكتبه . . . تساءل : متى كانت آخر مرة رأى فيها هذا الرجل بالملابس المدنية ؟ قبل سنتين . . . اكثر من ذلك . . .

كان فيه احساس في ان مثل هذا الرجل لا يهمه نوع ولون الملابس ، المهم ـ قال مع نفسه ـ ان يصل بشعبه الى بر الأمان . . .

«المهم ان اصل الى قواتنا . . . يجب ان اسير بهذا الاتجاه . . . هنا كان موقع باب الملجأ . . . وكان هذا الباب المحترق على الارض ينفتح باتجاه قواتنا . . . اذن يجب ان اسلك هذا الاتجاه . . . يجب ان اصل الى اقرب موقع لنا قبل بزوغ الشمس آه اللعنة على . . . .» .

كان صوت ابن اخيه يأتيه من حديقة الدار ، يعرف انه الآن يسقي الزهور التي زرعها والده قبل ان يقطع اجازته الدورية قبل اكثر من شهرين ، ويعود الى وحدته . . . وقال له مرة : ان الزهور تعطي المكان جمالاً ، والجو رائحة طيبة . . .

فرد عليه بابتهاج : اعرف ذلك . . . وضحك

«كان الظلام من امامه ومن خلفه ، سكوناً قاتلاً . . . يحسه كالسم يسري في شرايينه . . . لم يسمع سوى صوت ساقه وهي تنسحب على الارض . . . قال مع نفسه : ـ انها ترسم من ورائها خطاً على تراب الارض . . . انها تشق طريقها بقسوة وجبروت . . . انها تتقدم . . .

وقف قليلاً ... مدّ بصره الى الخلف ، لم يكن هناك ثمة شيء سوى الظلام ... كيف حدث هذا ؟ ... هل سكتت المدافع الى هذا الحد ؟ ... من اين لي الان من صوت يشق هذا الصمت ... هذا السكون .. ؟ هل انتهى كل شيء .. ؟ .

احس ان في قلبه شيئاً ما يريد ان ينبجس ... ان ينفجر ... ان ... » .

اغمض عينيه على بياض الاوراق ، تنفس بعمق ... حاول ان يتذكر شيئاً ... شيئاً ما ... ليكن ... آه ... لقد وجدتها ... تكون هي قصتي الاولى ... هل اقدر على الكتابة فيها .... سأبدأ ... سأبدأ من حيث بدأ أخي بحكايته عن صديقه الذي استطاع الهرب من الاعداء ... ستكون قصة رائعة بالطبع ... حتماً سأنجح في ذلك ...

تقدم بطلها الذي تهدم عليه الملجأ ...

«كان القصف المدفعي مستمراً ... الساعة الرابعة مساءً ... كنا داخل الملاجيء والمواضع ... بدأ كل شيء فجأة ... لقد فتحت جميع فوهات مدافعنا ومدافعهم ، اسلحتنا الخفيفة واسلحتهم .... تلقينا أمر التقدّم .. فرِحْنا كثيراً ، فرُحْنا نتقدم ... كان كل شيء امامنا مفتوحاً ، كنا نشاهد جنود العدو ينهزمون من امامنا ... يتركون مواضعهم وملاجئهم ويهرولون ... لقد ارعبهم تقدمنا ... هذا الزحف الجبار ... وصلنا الى مواضعهم التي تركوها ... دخلت ورفيقي احدها ... كان خالياً ...

كم لذيذة هي الكتابة ... انها بداية لا بأس بها .

سحب علبة السكاير من فوق المنضدة ... اخذ منها واحدة .... اشعلها ثم دسها في فمه ... سحب منها نفساً عميقاً .... وحمل قلمه ...

«وكان كل شيء في مواضع العدو قد ظل كما هو ... صناديق العتاد ... الرمانات اليدوية ... البنادق ... بعض المعلبات .

قال رفيقي : ـ لقد تركوها وانهزموا ... جبناء .

ابتسمت له ، قلت : ـ هكذا هم دائماً ...

دخل علينا رفيق ثالث وأخبرنا : ـ اتركوا كل شيء ... لقد صدرت الاوامر بالانسحاب ... نفذنا الواجب بدقة ... هيا ... » .

رفع عينيه من صفحة الاوراق البيضاء المبعثرة في حضنه ... نظر الى عكازتيه ... جمع اوراقه .... وضعها فوق المنضدة ... مدّ ساقيه بمساعدة يديه ... انزلها الى الارض ... تحرك قليلاً الى الأمام ... احدى العكازتين ثم نهض واقفاً .

ـ سأتحرك قليلاً .. «حدث نفسه بانشراح» .

اقترب من النافذة ، كان ابن اخيه مازال واقفاً في وسط الحديقة . رآه يتأمل بعض الازهار .

رجع الى مكانه ...

كانت شراشف سريره مبعثرة ... نظر الى الاوراق الملقاة على المنضدة ، جمعها بين يديه ثم اخذ يقرأ بهمس ماكتب فيها ... كانت الكلمات امام عينيه تتحرك ، تأملها جيداً ... ابتسم ، ضحك ، قهقه عالياً ... اقترب من سريره وضحكته مازالت تملأ الغرفة ... جلس على حافة السرير ... اخذ الجريدة وبدأ يقرأ القصة من جديد ...

«لا تيأس ، يجب ان تصل الى مواضع القوات ... يجب ان تقهر هذا الألم ... هذا الظلام ... الصمت السكون ، يجب ان تصلهم قبل

الفجر ، الليل ستار ، حتماً انهم قد افتقدوك الآن ... سيبحثون عنك ... وقف قليلاً .. كانت ساقه قد اتعبته كثيراً ... مد بصره في ظلام المكان ... احس بالبرد يوخز جسمه ، تأكد من جديد بأن جسمه سالم من كل شيء لولا هذه الشظية الملعونة ... دفع بجسمه الى الامام ... كان الظلام هو الشيء الوحيد الذي الفته عيناه ...

نظر الى ساعة يده ، لم ير التماع فسفورها ، تحسسها بأصابع يديه ... كانت زجاجتها مكسورة ... قربها الى اذنه ، لم يسمع تكتكاتها ... حركها ، مرة واخرى ، دون فائدة ... قال مع نفسه : ـ يجب ان اصل قبل الفجر ... رفع رأسه الى الاعلى ، كانت الغيوم سوداء حالكة تحجب القمر وضوءه ... عندها ترك لقدميه حرية الحركة فسار في الظلام .. و ... قف ... » .

رفع رأسه ، كان ابن اخيه يقف امامه ، يبتسم له ، وكان يضع يديه خلف جسمه .

ابتسم له ... عرف انه يخفي شيئاً ....

: ـ اغمض عينيك .

سأله الطفل بفرحة .

: ـ لماذا ؟ .

اجابه مبتسماً .

أعاد الطفل سؤاله مؤكداً : ـ قلت اغمض عينيك وسترى . كان يحبه وكان دائماً ما يحدثه كصديق ... يجلسان سوية ، يتحدثان عن كل شيء ... وكان هذا الطفل المشاكس العنيد ، ينقلب امامه الى حمل

وديع ... الى انسان آخر ... يحدثه عن الحديقة وعن الارض الخضراء ، عن الزهور وانواعها ...

نظر اليه ... ثم اغمض عينيه ..

«تسمر في مكانه ... بحث عن مصدر الصوت ... رأى اشباحاً تتحرك بعيداً عنه ... عرف فيهم جماعته ... اذن جاؤوا للبحث عنه ... حتماً انهم من جماعته ... كانت ـ قف ـ تحمل زخماً قوياً من الرجولة ، لقد تعودت اذناه على سماع هذه الكلمة .... » .

صاح به الطفل : ـ

ـ افتح عينيك ...

كانت باقة جميلة من الزهور ... نظر اليها ... نظر اليه ... مد يده الى شعره ... مسد خصلاته الناعمة ... جذب رأسه الى قرب فمه وقبله .

: ـ شكراً ، انها اجمل هدية قدمت لي .

١٩٨٣/٣/٢٨

البداية

لم يستطع السيطرة على حركة شفتيه .... واصطكت اسنانه التي نخرها النيكوتين ، فاستحال بياضها الى لون بني مصفر .

كان الجو خارج الغرفة التي يقف العريف (مسعود) في منتصفها يلتهب ... والشمس تنتصف السماء كتلة نارية ملتهبة ... والمروحة التي تحرك هواء الغرفة وهي تنشره على رأسه ساخناً ملتهباً ، فيما راح آمر الوحدة ، يمسح العرق عن وجهه بمنديل ابيض وهو ينظر له بألفة وود .

مد لسانه وبلل شفتيه ...

كانت حركة تقدم اللسان تمر عبر زمن خاله قد امتد الى ما لا نهاية .

أحس ، ان لسانه لم يستطع الوصول الى شفتيه ... وجمع كل قواه ليبتلع ريقه الذي يبس لاكثر من مرة فلم يستطع .

- هل توقف الزمن ؟ .

سأل نفسه باندهاش .

احس ان ساقيه لم تعودا تطيقان حمل جسمه الهزيل وان قلبه يسرع بضرباته المتلاحقة ...

- ايهما اسرع ، الضربات ام حركة اللسان ؟ .

لم يعد يفكر بما حوله ... لم يسمع من قول آمره ولا كلمة واحدة بعد ان سمع الكلمات الاولى .

كانت الغرفة التي يقف في وسطها بارضية صقيلة تسطع بالنور الذي تساقط عليها من اضوية معلقة بالسقف ، وامتدت الالواح الخشبية البنية اللون على محيط جدرانها الاربعة ، مغلفة بياض الجدران الجصي فيما راحت المروحة تنشر الهواء في فضائها الملتهب

تساءل : ـ لماذا لم يتركوه ؟ فهو لم يحس بطعم الراحة سوى هذه الاشهر الاربعة الاخيرة .

فمنذ ان ارتدى هذه الملابس الخاكية اللون قبل اكثر من عشر سنين وهو ينتقل من مكان الى مكان مع وحدته ووحدات اخرى . . . لم يعاقب ، ولم يتخلف عن واجب . . . ولم يغب في يوم ما ولا لدقائق معدودة . . . لماذا لم يتركوه بعد ان انتقل بالقرب من اهله . لماذا ؟ .

اكد لنفسه ، فيما كان آمره قد اعاد وجهه الى الاوراق التي امامه يقلب فيها : ـ

ـ صحيح انني عسكري ، وضابط صف مشهود لي بالشجاعة والاحترام ، ولي اكثر من كتاب شكر وتقدير في اضبارتي الشخصية ونلت وسام قماش احمر اللون ثبته على «بيريتي» السوداء ، وصحيح انني قد نذرت نفسي للوطن والاهل منذ ان وضعت هذه (البيرية) السوداء على رأسي ، ولكن لماذا لا يتركوني انعم بالراحة ولو لأشهر اخرى مع زوجتي واطفالي ومن ثم لينقلوني الى ما شاؤوا من الاماكن .

انتبه الى نفسه . . . .

تذكر انه لم يسمع من حديث آمره كلمة واحدة، وها هو أمامه واقفاً كعمود مصلوب منذ مئات السنين ، لم ينبس بكلمة واحدة . . . لقد جف ريقه . . . عندها فهم ان ما بين آمره وبينه قد انتهى . . . ولكن كيف ؟ .

ـ انسحب . . . عريف مسعود يجب ان تنسحب ، انهم يتقدمون .

كان صوت احد جنود الكمين قد اخرجه من تلك الدوامة من الافكار التي عصفت برأسه .

ـ ماذا تقول ، هل ارسلونا لكي ننسحب ، هيا تقدموا .

كان في صوته تحد لكل من امامه :

ـ عريف ، انهم يدخلون منطقة الكمين . . . يجب ان ننسحب .

انه يعرف ذلك ولكن : ـ

ـ ها . . . اتريدنا ان لانرى ثمرة عملنا . . . يجب ان نرى نهايتهم . . . اخفضوا رؤوسكم . . . ستنفجر الالغام . .

ـ ماذا قلت ياعريف مسعود ؟ .

اخرجه سؤال آمره من تلك اللحظات التي عاشها في حرب تشرين . . . تلك الاعمال البطولية التي خاضتها وحدته على ارض سورية . . . وتلك الاعمال الكبيرة التي قام بها الجيش العراقي دفاعاً عن دمشق . . . والآن ألا يتركونه يهنأ ببعض الوقت بين اهله واطفاله ؟ .

ـ ارجو ان ترفع رأسك ياعريف مسعود . . . اسمعت ما قلته لك . . . انت عسكري جيد . . . ومقاتل شجاع والعسكري لا مكان له سوى المكان الذي ينطلق منه للدفاع عن وطنه وامته . . .

كان آمره يتحدث معه والبسمة مرتسمة على شفتيه . . . كان يحترمه :

ـ لقد تغيرت الامور كثيراً ، وانت تعرف ياعريف مسعود ذلك . . . وان الاعداء مازالوا يأتمرون ضدنا . . . يوم هنا ياعريف مسعود ويوم هناك . . هكذا هي العسكرية .

لم يكمل شهره الرابع بعد في وحدته الجديدة هذه . . . قال لزوجته عندما نقل الى هذه الوحدة : سأكون قريباً منك . ومن الاطفال . . . سأساعدك في تربيتهم . . . سأتقاسم معك عمل البيت . . . المهم سأرتاح بعض ، الوقت . . . ولكنني لا اعدك بالبقاء دائماً حتى نهاية العمر . . . انت

تعلمين ياابنة الناس ان العسكري ليس له مكان سوى وحدته اينما كانت . . . وان الجيش قد ازداد . . . لم يعد كالسابق . . . لقد امتدت وحداته من الشمال الى الجنوب . . . والاعداء يريدون بنا الشر . . .

كانت هي ، في حديثه معها ، تحس بحرارة الود والألفة التي كانت تحنّ اليهما . فقد كان يمضي الشهر والشهران دون أن تراه . . . تسمع اخباره . . . تتسلم مصروف البيت من احد رفاقه . . . اما هو ، فقد كانت الواجبات والفرضيات تأخذ منه ايامه ولياليه . . . وعندما يأتيهم باجازته الدورية ، تكون هي قد اعدت له الحمام . . . وتفتح احد ابواب المشجب الخشبي وتستخرج منه (اليشماغ) الاحمر النظيف والعقال (المرعز) والعباءة «الجاسبي» والدشداشة البيضاء . . . وقد عطرتها باعواد البخور . . .

كان هو يرتدي ملابسه كاملة . . . يجلس على التخت الذي نصبه في احدى زوايا الغرفة الوحيدة في البيت ، ليشرب القهوة التي تعدها له ، يجر انفاساً لذيذة من (النارگيلة) المزركشة بالألوان فيبدأ رحلته معها ومع اطفاله . . . فيما تختفي هي وراء باب الحمام .

كان هو يبقى مع الاطفال ، حيث كانت هي تذهب حاملة كتبها الى مركز محو الامية . . .

هكذا اتفق مع زوجته . . . قال لها يجب ان تتعلمي . . . ليس من المعقول ان تبقي هكذا على جهلك ياابنة الناس ان الام مدرسة . . . هكذا علمونا .

كان يلاعبهم . . . اربعة اشهر وهو يلعب مع اطفاله . . . ثلاثة اولاد وبنت . . . وكان يحكي لهم عن الجيش . . . وحرب تشرين . . . والانتصارات . . . التقدم والانسحاب . . . وكان اكبرهم في الثامنة من

عمره ، يرتدي بيرية والده السوداء . . . ويمسك عصا بيده . . . ويضرب . . . يضرب بالرصاص . . . يقع أخوه الاصغر فيما يقف اخوه الثالث . . . كان صغيراً يحمل اعوامه الثلاثة مابين شفتيه . . . انه دائم الابتسامة . . . كان يقف وهو يصرخ . . . انا قوي . . . قوي لا أموت . . . وكان هو يضحك . . . اما اختهم . . توأم الكبير ، فقد كانت تضمد جراح اخيها الصريع على ارض الغرفة . . . وهو يضحك من لهوهم . . . يضحك وزوجته تتعلم «فك الحروف» وابنها يضرب بالرصاص . . . والآخر يصرخ : انه القوي . . . واختهم تضمد الجراح .

ـ ها عريف مسعود ، امازلت واقفا هنا . ؟

ـ ها . . . نعم . . . العفو سيدي .

ـ ماذا بك ؟ سأله الآمر مستفسراً .

اجابه باحترام : ـ

ـ لا شيء ياسيدي .

رفع يده اليمنى . . . ادى التحية بكل تفنن ودقة . . . ثم استدار الى الخلف بخفة ونشاط ، وخرج .

× × × ×

رفع حقيبته السوداء . . . ووضع معطفه العسكري الخاكي على ذراع يده وقبل ان يودعهم ، ابتسم امام وجهها . . . كانت هي حزينة . . . قال لها : لا تعجبي . . . يجب ان اخذه معي . . . اعرف انني سأبقى هناك حتى انتهاء فصل الشتاء .

كانوا اربعة يقفون امامه كالطابور العسكري . . . ادى اكبرهم التحية

فيما قال له ابنه : ـ ستكتب لنا ياوالدي .

قالت ابنته : ـ ستجلب لي لعبة جميلة . . . ارجو ان تكون كبيرة بحجمي .

قال له ابنه القوي : ـ اريد بندقية .

× × × × × ×

تحركت به السيارة . . .

كانت زوجته تمسح قطرات دموعها بأطراف انامها المحناة . . . مرقت السيارة بجانبها ، كان هو يلوح بيده لها . . . خجلت . . . نظرت الى من حولها . . . ابتسمت . . . حركت يدها اليه بهدوء . . . رفعتها الى الاعلى . . . امتدت يدها . . . تحرك كفها . . . ثم رأته يبتسم لها من خلال زجاج السيارة . . .

١٩٧٩/١١/١٠

«ايام الزهو»

«من مذكرات فتاة عراقية»

٩/٢٢

اصبحت الخيمة الصغيرة ذات اللون الخاكي ، بالنسبة اليّ ، هي بيتي الصغير ، منذ اليوم الذي وطئت قدمامي أرضها المزروعة بالثيل الاخضر .

كنت فيها مع زميلاتي وزملائي ، طلبة الكلية ، كالعائلة الواحدة . . . لم اشعر بينهم بالغربة ولا الوحدة . . . كان كل شيء فيها يذكرني بعائلتي . . . والدي المقاتل ، ووالدتي الحنون ، واخي الصغير .

اي شيء كان يخبئه لنا هذا القدر الملعون الذي جعل من ايران ان تكون جاراً لنا ؟ . . .

هل تطول هذه الحرب المفروضة علينا ؟

كانت الاسئلة تطرق ذهني ، وتملأ تفكيري . . لكنها لم تستطع ان تشوهه . . . فقد كانت اجاباتي عنها هي قناعاتي نفسها التي قد تكونت بجهدٍ من التنظيم الحزبي . . . ومن التربية العائلية ، وقراءاتي المحببة لتاريخ العراق .

«صافرات الانذار تصرخ معلنة دخول بعض الغربان السوداء في اجواء جنتنا . . . بغداد» .

تعالت الزغاريد من افواه زميلاتي . . . وتراقص الزملاء . . . فقد اذيع البيان / البشرى . . . لقد بدأ الرد العراقي على كيد الاعداء .

انا فرحة ، مسرورة . . .

× × ×

٩/٢٣

أية روح تسري فيك ايها العراق الحبيب !

هل كتب علينا ان ندافع عن حماك في كل وقت وزمان ؟ . . الا يكفي اولئك الفرس المجوس هزيمة الحقناها بهم قبل اكثر من الف عام ؟ . . . ألا تكفيهم هزائمهم امام انتصاراتنا ؟ .

آه ايتها الخيمة الصغيرة المحبية . . . ايتها الجنة . . يابغداد . . .

وما اجمل ان تعيش مع زملاء وزميلات يمنحونك مثل هذا الحب . . . وهذا الاحترام . . . ما اجمل ان تعيش مع اخوة لك يقتطع احدهم رغيف خبزه ليطعمك . . . وتأتي لك زميلة بكوب الشاي الساخن . . . ما اجمل هذا . . .

ها هي هناء ، تقدم الصينية الصغيرة وعليها كوب الشاي ، تضعها على سريري . . .

كنت وقتها احاول لف اليشماغ الاحمر على رأسي . . . كان الزميل فائز مسؤول مجموعة الدفاع المدني يشد رأسه دائماً باليشماغ . . . كانت لفته لليشماغ قد استرعت انتباهي . . . فحاولت ان اقلده لكنني فشلت ، عندها اخذت الزميلة هناء اليشماغ ، وبدأت تلفه حول رأسي ، وعندما انتهت من ذلك قربت المرآة الصغيرة امامي ، هالني مارأيت . . . عندها طبعت قبلة على خدها وشكرتها .

قالت : ـ للنساء طريقة خاصة بلف اليشماغ . . . اترين ذلك ؟ .

× × × ×

٩/٢٤

آه ايتها اللحظات الجميلة . . .

«صوت صافرة الانذار أعلن دخول الغربان السوداء في فضاء مدينتنا

الجميلة . . . » .

اترك القلم ودفتر المذكرات واخرج من الخيمة لانضم الى زملائي .

× × × ×

ما الذي يريده منا المجوس ؟ هل يريدون ، بأزيز خفافيشهم وغربانهم السوداء ، ان يميتوا في عراقنا الحبيب جذوة الحب والحياة ؟ الصورة الجميلة ؟ هل يريدون قطع اوردة أطفالنا الاحبة ، وحرق خضرة حدائقنا الجميلة؟ .

تباً لهم من اعداء . . .

× × × ×

٩/٢٥

الساعة العاشرة صباحاً . . . كل شيء هادىء ، كنا قبل قليل نستمع لمحاضرة احد مسؤولي الدفاع المدني . . . لقد استفدت منها كثيراً . . .

دخلت الخيمة ، لاكتب هذه السطور . . . . و . . .

دخل احمد الخيمة بعد ان طلب مني السماح بذلك . كانت خيمته هو وزملاؤه تقابل خيمتنا بالضبط . . وكانت بدلته الخاكي مازالت تحمل بعضاً من ذرات التراب التي علقت فيها جراء نقله لبعض اكياس الرمل هو والزميلة سناء . . . كان التعب بادياً على وجهه .

جلس على السرير الآخر صامتاً . . . وجهه بارد لا حركة فيه . . . عيناه الحادتا النظر ـ هكذا شعرت بهما ـ قد التقتا اكثر من مرة بعيني .

تساءلت مع نفسي : لماذا ينظر الي هكذا ؟ .

ودون اية كلمة ، اعتذر وخرج .

لم اهدأ وقتها . . . هل كان يود محادثتي بشيء ما ؟ ام ان هناك ما يخجل من قوله ؟ .

ماذا به ، دخل وخرج دون ان يكلمني ؟ هل كان يعرفني من قبل ؟ ام انه يبحث في وجهي عن فتاة كان قد التقى بها سابقاً ؟ .

لا اعرف عنه شيئاً . . . فعندما انتسبت الى هذه المجموعة الطيبة مع زميلاتي وجدته مع الزملاء قد انتسبوا قبلنا بأيام .

كان السلام هو الكلام الوحيد «صافرات الانذار تعلن عن غارة معادية» .

× × × ×

لقد تم كل شيء امام عيوننا . . . رأينا طائرتهم تحترق بصاروخ انطلق من ارض عراقنا الحبيب . . . رأيناها تنفجر في السماء ككتلة نار تلتهب . . . هكذا هم دائماً ، يعبدون النار وتحرقهم هي نفسها .

سيارات الاسعاف تنطلق الى مكان ما . . .

استطعنا ان نقنع اهالي المنطقة بالدخول الى بيوتهم كانوا يريدون الخروج الى الشارع ليروا كيف تتساقط طائرات المجوس الواحدة بعد الاخرى .

× × × ×

احمد ، هل كانت نظراتك تحمل من العفوية اكثر مما قد ظننته ؟ .

هل اسأله ؟ هل احدثه عن ذلك ؟ هل اطلب منه ان يريحني من تلك النظرات .

سأترك ذلك للايام المقبلة . . . هكذا قررت .

تدخل سوسن الخيمة ، لأخرج انا بدلاً عنها لاقوم بمراقبة الهاتف .

× × × ×

٩/٢٦

كان هو اول شخص استقبلني قرب الخيمة . . . الساعة الآن تقترب من السادسة صباحاً . . . حييته ، ودخلت الخيمة لأرتبها في الساعة العاشرة صباحاً ، وبعد الغارة التي شنتها مجموعة من الغربان السوداء على مدينتنا ، كنت جالسة على احد الكراسي امام فتحة باب الخيمة . . . فيما كان الزملاء والزميلات يشتركون في حديث عام عن العام الدراسي المقبل .

كانت هدى ، مستلقية على السرير داخل الخيمة ، وهي تطالع في رواية «الحرب والسلام» . . . اما انا فقد كنت استمع الى الراديو وهو يبث احدى الاغاني الحماسية .

كان احمد قد ترك زملاءه وجلس قرب خيمتهم قبالي بالضبط واخذ يحدق بي . .

ـ لماذا هو دون غيره من الزملاء يمعن النظر هكذا في وجهي ؟ تساءلت مع نفسي ، فيما كانت «الحرب والسلام» في حضني بين يدي . . .

ـ هل يوحي له وجهي بمسحة فنية ، لوحة جميلة ؟ هل هو فنان يحاول استلهام وجهي ؟ هل اسأله . ؟

آه . . . اللعنة . . . لو كنت اعرف الكلية التي يدرس فيها . . . كان يجب ان اسأله عن ذلك . . . هل هو طالب في الفنون الجميلة ؟ .

ـ هل يوحي له وجهي بشيء من الفن ، انه يريد ان يجعل مني «جيوكوندة»

جديدة . . . ربما كان يسميها «موناليزا الحرب» او «موناليزا الدفاع المدني» . . . او «موناليزا الخيمة» . . . وضحكت . . . .

ضحكت دون ان انتبه لنفسي . . . كنت وقتها شاردة الذهن مع موناليزا أحمد عندما سمعت صوت هدى يردد اسمي . .

كانت الزميلة هدى قد وقفت قبالتي ، وقد وقف بالقرب منها اخي الصغير مهند . . .

سلمني مهند رسالة من «ماجد» واخبرني ان احد رفاقه المقاتلين قد جاء بها الى البيت قبل ساعة . . .

شكرته . . . وطلبت منه ان يجلس معي قليلاً ، فاعتذر ، لانه سيلتحق مع جماعته الطلائع .

«خطيبتي ، وعزيزتي . . . سناء .

اي نغم يحمله هذا الاسم . . . واية روح تحملها صاحبته . . . انه تعويذتي وانا اتقدم مع رفاقي المقاتلين لنيل شرف الشهادة في سبيل الوطن» .

الشهادة . . . آه منك ياماجد . . . اما تزال تذكرها . . . فمنذ ان التقت نظراتي بنظراتك اول مرة ، ومنذ ان سمعت فيها صوتك ، كانت هي الكلمة الاولى في ذلك اللقاء . . . الشهادة . . . لم اكن اعرف ما يحيط بها من معان كبيرة سامية سوى معناها القاموسي . . . قبل ان اتعرف اليك . . . وقبل ان اضع يدي بيديك . . . آه ياماجد . . كم انا في شوق لان اراك . . . احدثك . . . اقبلك . . . امسح عن بدلتك تراب المعركة . . . انظر في عمق عينيك . . . ذلك العمق اللامتناهي . . . آه ياماجد ، لعن الله الحرب . . . وارجو المعذرة ياحبيبتي . . . فانا مازلت اذكر اعتراضك على هذه «اللعنة» ولما

تزل كلماتك ترن في اذني . . . لقد اثرت لي الطريق بها . . . انني اذكرها . . . جيداً .

قلت لي مرة عندما لعنت الحرب امامك : لا تلعنيها . . بل العني من كان سبباً فيها . .

ان الحرب ياحبيبتي هي الفيصل في اعادة الحق لاصحابه ، وهي المحك الذي تنجلي عليه معادن الرجال . . . لا تلعنيها ياحبيبتي ، لانك في هذا تلعنينني انا . . . انا ضابط ، والضابط هو مدير الحرب . . . ووقودها . . .

وضحكت . . . كانت ضحكتك لها صوت المدافع . . . ضحكتك قد جلجلت كل افكاري السابقة وآرائي . . . لكنك توقفت فجأة . . هل كتمت ضحكتك . . . كيف . . . كيف . . . ألك القدرة على ذلك ! ؟

لم ازل ياحبيبي اذكر ذلك الموقف . . . ادرت وجهك اليّ وعندما وجدتني واجمة سألتني : -

لماذا أنت واجمة حزينة ؟

قلت لك :

ـ ماجد ، انا اخاف الحرب .

عندها ضحكت ، وطلبت مني ان اضحك . . . ألححت عليّ بطلبك ، قلت لي : -

سناء اضحكي . . لا اريد ان اراك في هذه اللحظة ووجهك متوشح بالحزن . . . سألتحق غداً الى الجبهة . . . اضحكي ارجوك اريد ان آخذ هذه الضحكة معي . . . اريدها ان تعيش معي في ساحة المعركة . . . اخفيها بين طيات ملابسي . . . ارجوك اضحكي . . .

وضحكت انت . . . كنت أحسدك على هذه الروح المتفائلة . . . وذلك القلب الكبير . . .

× × × ×

٩/٢٧

عمل متواصل ، تنظيف الخيام والمنطقة المحيطة بها . . محاضرة صغيرة عن اطفاء الحريق . . .

× × × ×

٩/٢٨

كان صامتاً . . . يذرع المنطقة الفاصلة بين الخيام رواحاً وجيئاً . . . وكلما ارفع بصري اليه خلسة اجد نظراته مزروعة في وجهي . . .

ياإلهي ماذا افعل ؟ هل احدثه ، أأطلب منه ان يقدم لي تفسيراً عن ذلك ؟ ماذا افعل ، هل اصده ؟ انه رفيق هادىء ودؤوب . . . ولكن لماذا، لماذا ياأحمد تحاصرني هكذا بنظراتك لماذا ؟ ! .

قل لي عما يدور في خاطرك ، تحدث . . . افتح لي قلبك ، عرفني بما تريده مني . . . افصح لي القول . . . اما ان تترك نظراتك تحاصرني هكذا فهو عمل غير لائق بك . . .

ـ رفيقة سناء . . .

جفلت . . . كان صوته قد اخرجني من دوامة تلك الافكار . . . نهضت . . .

ـ نعم رفيقي . . .

ـ ارجو المعذرة ، جئت لاودعك ؟ .

فاجأني قوله : -

لماذا ؟ .

سألتحق بالجبهة :

ـ لكنك منتسب الى الدفاع المدني .

ـ هذا صحيح ، ولكنني قد تدربت اكثر من مرة في قاطع الجيش الشعبي ، وسيلتحق القاطع بالجبهة . . .

سألته ، وانا اريد ان اطيل الحديث معه ، عله يحدثني بما يريد : -

ـ في اي مكان ؟ .

ـ في القاطع الاوسط .

سألته بلهفة :

ـ في مندلي .

ـ نعم . . . بالضبط .

عندها ، تذكرت «ماجد» . . . انها فرصة سانحة كي اقطع الشك باليقين . . .

قلت له : -

ـ تذهب وتعود بالسلامة ، ولكن لي رجاء عندك .

سألني بلهفة : -

ـ ماهو ، قولي ؟ .

ـ ارجوان تحمل لي رسالة خاصة الى خطيبي ، النقيب ماجد عبدالله . . . انه في احدى الوحدات الموجودة قرب مندلي . وسأعطيك عنوانه

عندها رأيت وجهه يمتقع ... اصفر ... وبصوت خفيض قال : ـ
ـ سأوصلها ...
ثم ادار جسمه وهو يردد : ـ
ـ مع السلامة .
قلت له ، وانا احس براحة نفسية كاملة : ـ
ـ مع السلامة ، يحفظكم الله .

الاردن ـ ١٩٨٠/١٢/١١

«طائر العنقاء»

«فصل من رواية ....»

ـ ١ ـ

قبل لحظة ... ثوان معدودة ، هي قليلة في حسابات الزمن ، لكنها ـ في عالم الطيران ـ هي بعمر الدهر ، حيث للزمن دوره الكبير والفعال في الحسم ، ما بين الوصول الى الهدف وتدميره ... وبين العودة سالماً الى ارض الوطن موشوماً بالرجولة والبطولة ومتشحاً بوشاح النصر والفوز .

قبل لحظة ، كان النقيب الطيار «سيف الناصر» جالساً على كرسي الطائرة ، الكرسي الذي حضنه كما تحضن الام وليدها بين ضلوعها ... اما الآن ، فها هو معلق في الجو بخيوط حريرية رفيعة ، هي خيوط المظلة التي انتشرت فوق رأسه .

كان كل شيء قد انتهى بسلام ... واجهزة الطائرة تبين له ان كل شيء يسير حسبما يرغب ... وها هي طائرته تشق الفضاء المحيط به مسرعة الى هدفها في عمق الاراضي الايرانية ... تستعجل الدقائق والثواني للوصول اليه لتدميره .

كانوا اربعة ... وكما يطلق عليهم حسب سياقات الطيران ، تشكيل رباعي ... يضمه هو والنقيب الطيار ياسين عبدالرحمن والملازم الاول الطيار خالد الموفق بقيادة المقدم الطيار طارق السعدوني ... وكان ترتيبه الثالث .

كانت معارك الفاو البرية على أشدها ... عندما طلب من تشكيلهم ضرب احد معامل تصليح الزوارق البحرية والذي يقع على نهر «بهمشير» في عمق الاراضي الايرانية ....

كان ذلك قبل ثلاثة ايام ... حيث تم اجراء بعض التمرينات على

كيفية ضرب الهدف . . . وعندما وجدت غرفة العمليات في قيادة القوة الجوية ، ان التشكيل قد استوعب جميع التمرينات على ضرب الهدف ، حددت لهم ساعة الصفر .

في غرفة حركات القاعدة ، قال لهم العقيد الطيار الركن محمد المحسن ، آمر القاعدة ، وهو يشير بأصبع يده اليمنى الى خارطة مصورة مفروشة امامه على احدى المناضد الخشبية الكبيرة في غرفة الحركات : -

- هذا هو موقع المعمل . . . وهذا هو نهر «بهمشير» . عندها تركزت العيون جميعها على المنطقة التي تحركت حولها أصبع آمر القاعدة . . . وبعد ان تأكد له ان الجميع قد شاهد المكان على الخارطة بصورة جيدة . . . استطرد قائلاً : -

- حسب المعلومات الاستخبارية . . . فان العدو يعتمد بصورة كلية على هذا المعمل في تصليح زوارق بحريته التي اصبحت اهدافاً سهلة لقواتنا البحرية والبرية والجوية ، كذلك . . . يعني «وهنا عدل آمر القاعدة من وضع قامته ، حيث وقف منتصباً» وتابع قوله وهو يؤكد امام ضباطه : -

- هذا يعني ان الاصابة المباشرة ، والقاتلة ، تعني خسارتهم لاهم مركز صناعي عسكري في تلك المنطقة وحتما فان عملكم هذا سيؤثر في معنويات جنوده ، ان كان ذلك في قواته البحرية التي اصبحت لا تستطيع رفع رأسها امام قواتنا الباسلة . . . او في سائر صنوفه العسكرية ، وخاصة بالنسبة للضفادع البشرية التي كثيراً ما كانت تستفيد منه خلال القيام بفعالياتها امام قواتنا .

- ٢ -

كانت الضربة للهدف موفقة ، مما دفع بقائد التشكيل المقدم الطيار

طارق السعدوني الى الهتاف فرحاً : -

- عاشت اياديكم ياابطال .

حيث استطاع من خلال خبرته المتراكمة ، ودوره في قيادة تشكيله مخترقاً دفاعات العدو الجوية المزروعة حول المصنع للوصول الى الهدف بسلام ، ثم تدميره تدميراً كلياً ، وترك ألسنة النيران مشتعلة فيه ، والدخان يتصاعد أسود في الفضاء كغيمة كبيرة لا أول لها ولا آخر ، معلنة عن انتهاء دور ذلك المصنع واحالته الى ركام وانقاض .

عند انتهاء هجومه على المصنع ، استدار النقيب الطيار سيف الناصر كرفاقه بطائرته بزاوية حادة ، بعد أن وضعها بشكل مائل ، كي يرى وهو يتجه الى ارض الوطن آثار ضربته ومكان تساقط وانفلاق قنابر طائرته . . . وعندما وجد جهنم تحته تأكل بنيانها ذلك المصنع هتف مع نفسه قائلاً : -

- عاشت يدك سيف . . . لقد دمرتهم .

عندها احس بارتجاج قوي في طائرته . . . كانت الطائرة ترتج من تحته . . . فأخرجه ذلك الارتجاج المزعج من افكاره . . . وتلاشت فرحته فجأة . . . وازداد ميلان طائرته كثيراً . . . فأحس بها تهوي الى الاسفل . . حيث اخذت تدور به ، وهي تهوي بسرعة كبيرة وكأنها مغزل بيد غزّالة غير ماهرة .

كان عداد الارتفاع قد بدأ يؤشر له انخفاضاً سريعاً في الارتفاع . . ولاح له مؤشر السرعة يدور بسرعة كبيرة مبيناً له زيادة غير امينة في السرعة . . . لقد بدا له الان ان شيئاً ما قد حدث لطائرته . . . عندها جاءه صوت الملازم الاول الطيار خالد الموقع عبر جهاز «الأرقي» والذي استدار للتو

دورته الكاملة بعد ان افرغ حمولة طائرته على الهدف ، جاءه معلناً انطلاق صاروخ نحو طائرته . . ثم سمعه يصرخ : -

- سيف لقد اصيبت طائرتك .

عندها جفل . . . كان رد فعله سريعاً . . . تمسك بقوة بعصا القيادة الممدودة بين ساقيه . . . اخذ يحركها الى كل الجهات . . . حاول بكل ما في جسده من قوة لاعادة الطائرة الى وضعها الافقي المستقيم . . . حاول ان يخرجها من هذه الدوامة القاتلة . . .

كان مؤشر عداد الارتفاع مازال يدور بسرعة مؤشراً له تناقصاً في الارتفاع . . .

- كن ثابتاً . . . وانتبه جيداً .

صوت ما انبثق من بين خلايا جسمه ، وهو يحثه الى التماسك . . . الى ان يكون بطلاً . . . الى تفتيت حالة الخوف والقلق . . . الى عدم الارتباك . . . عندها سمع صوت قائد التشكيل يأتيه عبر جهاز «الأرقي» آمراً بحزم : -

- سيف ، اترك الطائرة حالاً .

كان صوت المقدم الطيار طارق السعدوني ، قد حرك في نفسه تلك الروح البطولية . . . وذلك النسغ المتصاعد مع دمه . . . وتلك الحمية العربية التي كان يمتاز بها كرفاقه الطيارين الذين استطاعوا لسنوات ان يحيلوا ارض العدو الى نار ملتهبة ، وسماء بلون الدخان . . . اصرار وثقة بنفسه في الوصول بطائرته الى ارض الوطن سالماً . . .

لن يترك لاعدائه حرية التصرف بمصيره . . . وحياته . . . ومستقبله . .

قال مع نفسه : -

- يجب ان اصل بها الى ارض الوطن . . . سأجاهد في ذلك . لكن صوت قائد التشكيل اخرجه مرة اخرى من دوامة الحيرة والقلق واتخاذ القرار . . . كان صوته هذه المرة آمراً ، وفيه قلق تبينه النقيب سيف الناصر من خلال الكلمات التي جاءته عبر جهاز «الأرقي» :

- سيف ، اترك الطائرة فوراً .

كانت عصا القيادة قد اصبحت بين يديه طيعة . . . وكانت الطائرة قد استحالت الى ريشة طير تتلاعب في فضاء واسع . . . اختلط لون السماء بلون الارض . . . فغشيت عيناه الوان السماء . . . الارض . . . السماء . . . الارض . . .

كان ذهنه رغم كل ذلك متماسكاً ، وتفكيره نشطاً . . . فلا مجال لغير ذلك ياسيف الناصر - خاطب نفسه - ها هي الطائرة تهوي به وهي تدور حول محورها الطولي كالمغزل بين أصابع طفل صغير لا يحسن الغزل . . . عند ذاك اتخذ قراره بترك الطائرة والخروج منها سالماً .

كان دوران الطائرة قد اشتد حول محورها الطولي وبوضع شاقولي غير مسيطر عليه . . . سحب قدميه الى الخلف «ترك الطائرة والخروج منها بسلام من ان يفقدك الوطن ياسيف» . . هكذا اتخذ قراره النهائي . . . وبنظرة خاطفة لما حوله تأكد من وضعية جلوسه الصحيحة على الكرسي . . . مدّ يده اليمنى الى ضابطة احزمة الكرسي النسيجية المحيطة بجسمه في منطقة الحوض . . . حركها عدة مرات ، عندها أحس بالاحزمة تضغط على فخذيه . . . تراجع بجذعه ورأسه الى الخلف . . . كان كل شيء يجري بسرعة . . . فالوقت يمر سريعاً . . . وعداد الارتفاع مازالت قراءاته في تناقص

بين . . . عندها مدّ يده الى الزر . . . ذلك الزر الذي بضغطة واحدة عليه سيجد نفسه يسبح في فضاء الله الواسع . . . وباصابع قوية ، وارادة صلبة وبشفتين رددتا اسم الله والوطن ، ضغط على الزر . . . وبلمحة بصر . . . رأى غطاء المقصورة الزجاجي ينطلق عالياً بسرعة كبيرة ، عندها أحس بجسمه ينقذف خارجاً . . . وشيء ما يضغط على عموده الفقري وهو مازال يتقلب في فضاء ازرق . . . مرة واخرى ، وثالثة . .

كانت الطائرة مازالت تهوي الى الارض . . . بعد ذلك أحس بجسده يستوي في الوضع العمودي ، وعيناه مازالتا ترنوان الى الاعلى .

لم ير المظلة . . . كان الاوكسجين النقي قد وجد طريقه الى انفه المغطى بالماسك عبر الانبوب المطاطي من حافظة الاوكسجين الملتصقة بجسمه .

السماء مازالت فوق رأسه ، زرقاء صافية . . . احس بقوة تجذبه الى الاعلى . . . تنتره بقوة . . . تسحب اضلاعه الى الاعلى . . . كانت المظلة قد انفتحت للتو . . . انتشرت كما ينتشر جناحا طائر كبير ، ساحبة جسده الى الاعلى ، وكأنها تريد أن تنبهه الى وجودها . . . ان تقول : ها آنذا فوقك ياسيف الناصر .

لم يحس بسقوط الكرسي من تحته . . . كان كل همه في تلك اللحظة هو فتح المظلة . . . عندها ردد بأمان بعد ان حرر نفسه من وجل ضللها قليلاً : الحمد لله .

كان كل شيء قد هدأ فيه ، واراح عن اعصابه ما انتابها من توتر قبل لحظات ، وها هو مرميّ في فضاء الله الواسع تحت رحمة هذه المظلة النسيجية وهي تحمله بخيوطها الرفيعة .

انقطع الان كل اتصال بتشكيله .... ولا يعرف عنهم شيئاً . . . فها هو الان غريب في ارض العدو تحت رحمة هذه المظلة التي تسحب جسمه في هذا الفضاء الواسع . . . عندها قرر ان يفعل شيئاً ما ، قال مع نفسه ، يجب ان اصل الى ارض الوطن سالماً . . .

مد بصره الى الاسفل . . . الى الارض المعلق فوقها بمسافة بعيدة . . . آه . . .

ندت منه تلك الآهة التي اخترقت جسده كله من ساقيه حتى شعر رأسه الذي مازالت الخوذة تحيط به من كل الجهات لتحافظ عليه مما يحيط به .

رأى وهو معلق في الاعالي ، نهراً يمتد من تحته الى جهة اليسار منه . . . عندها قرر ان يستجمع كل خلايا عقله في هذه اللحظة .

كان النهر يشق الارض الواسعة من تحته الى نصفين . . . بدا له كحية تتلوى في ارض الله الواسعة . . . عندها تيقن انه مازال في الفضاء المحيط بأرض العدو . . . اذن فمعركته قد بدأت الآن . . . الآن بعد ان ترك الطائرة وهو فوق منطقة العدو . . . فوق منطقة الاعداء ياصغيري الذي لم أرَ وجهك حتى . . .

اذن فدور والدك ايها الصغير الذي اتيت الى دنيا الله دون رؤيته . . . هاهو مصلوب تحت رحمة هذه المظلة وهي تلعب به في فضاء ارض العدو . . .

هل كان مجيؤك الى دنيا الله ياصغيري لتسمع ان والدك قد وقع اسيراً بيد الاعداء ؟ .

لكن لا . . . لا اريد أن أذل أو أموت كجندي تائه ، لا يعرف له قبر . . . لا . . . لا اريد ان اقع في هذه الارض ، لأظل تائهاً فيها ، أتسمّع

اصوات الانفلاقات ، وازيز الاسلحة كمن يتيه في غابة لا يعرف لها اول ولا آخر . . . لا . . . لا يذل والدك ياصغيري . . . اترى النور ووالدك اسير ، ذليل ؟ ! لا . . لا . . .

كانت المظلة تطوف به ، وهي تسحبه الى حيث جهة النهر . . . وكان قراره الوحيد هو ان يصل الى ارض الوطن سالماً . . . ان يجتاز هذه الانفلاقات تشتعل ناراً من تحته . . . و . . . آه يانقيب ياسين «١» الحق معك . . . الموت ولاذل الاسر . . . الشهادة ولا مذلة العيش بين أناس لا يعرفون معنى للانسانية . ولكن لا . . . يجب الا ينتهي دوري عند هذه اللحظة . . . لن أدع اليأس يتملكني ، لن ادع العدو يتحكم بحياتي . . . واذا كان هناك بارقة أمل يانقيب ياسين ، يامن اعلنت شهادتك للآخرين . . . او بصيص من نور ، فيجب البحث عنه . . . التمسك به . . . فلا يمكن ان ندع اليأس يجد طريقه الينا يانقيب ياسين .

ان الامل موجود دائماً امامك . . . فعندما تنظر الى جهة ما ، حتماً ستجد هناك بصيصاً مايدعوك اليه . . . فلا تيأس . . . لا يانقيب ياسين . . . لا .

لم يرد عليه نقيب ياسين في ذلك الوقت . . . نظر اليه فقط وسكت . . .

نعم ، لقد سكت وكان سكوته اجابة لجميع اسئلتي . . . حكمة عرفتها من خلال تلك النظرة التي تفرسني بها . . . هل يلومني ؟ . ولكنه حتماً كان يريد ان يخبرني ان قراره هذا لا رجعة فيه . . . فلا داعي لان تتعب نفسك بالحديث معي . . . لقد ملّ السيد آمر القاعدة ، وكذلك آمر السرب

- راجع قصة «اللقاء الاخير» المنشورة في هذه المجموعة عن هذه الشخصية البطولة .

الحديث معي حول ذلك . . . لست عنيداً ، ولكنني واثق ومؤمن بما اقوله واعتقد به يانقيب سيف الناصر .

اذن ، ليفكر جيداً . . . المظلة من فوقك والاعداء من تحتك ياابن الناصر . . . وابنك ينتظر عودتك ، وهو لم ير نور هذه الدنيا الا قبل يوم واحد . . . يوم واحد . . . يوم واحد ، فماذا انت فاعل له ياابن الناصر ؟ .

لا . . . لن يذل ابوك ياصغيري . . . لن يذل .

لم تعد له من حيلة إلا هذه الخيوط التي ترفع جسده وهي تطير به . . . تطوف به في هذا الفضاء الواسع الذي بدا له من خلال زجاج الخوذة الاخضر ، فضاء مسالماً . . . اين انت يارب ابراهيم . . . يامن جعلت من النار برداً وسلاماً . .

-٣-

كان في صوته الذي بدأ يتحرر من أسار شفتيه داخل ماسكة الاوكسجين نوع من المفاجأة التي ستفتح امامه طاقة الامل . . . الذي سيأتيه حتماً مع الريح . . . الريح يارب ابراهيم . . . الريح يارب ابراهيم . . .

الخدر مازال متعرشاً بين اعصاب جسمه . . . عندها حاول ان يستل يديه من بين الخدر اللعين . . . ان يفك اسارهما . . . ان يدعهما تعملان . . . فلاحيلة له سوى هذه الخيوط التي سيترك ليديه حرية السيطرة عليها . . . ان يوجههما الى الجهة التي يريد ويرغب . . . او ان يقع اسيراً . . . حلان لا ثالث لهما . . ان اصل الى ارض الوطن بهذه المظلة . . . الى صغيري . . . او ان اقع اسيراً ، فأعيش ذل الحياة . . .

الريح تدفع بالمظلة . . . والحبال تحمل جسده المصلوب في هذا

الفضاء ... وانت يانقيب سعدون العاكف ، ونظريتك في الشطرنج ... لقد جاء دورها الآن ... الشطرنج لا غيره هو الذي ينمي المدارك . ويمنح سرعة الاستجابة لاي فعل معاد ... دقة في العمل وتنشيطاً للفكر ... وصفاء للذهن ... فليكن فكري - الآن - في قمة نشاطه ... وليصْفُ ذهني ... فانا لا املك سواهما سلاحاً هذه اللحظة .

القفازان الجلديان ، بلونها الاخضر يحيطان باصابع يديه ... يحفظانها من هذا الصقيع الذي امتلأت به سماء الله الواسعة ... فلم يشعر - بفضلها - بالبرودة ، رغم ان جسمه قد اختض مرة واخرى بقشعريرة تملكته قبل قليل ... عندها حرك اصابع يديه ... فاستجابت للحركة ...

حرك كفيه ، كان كل شيء فيهما سليماً ، حمد الله ، عندها وبنترة واحدة لذراعيه ، حررهما من ذلك الخدر اللعين ، رفعهما الى الاعلى ... كانت المظلة مازالت تحمله بخيوطها النسيجية ، ساحبة اياه في جوف الفضاء المترامي الاطراف ... مدهما الى الخيوط المتدلية فوق رأسه ، أمسك بمجموعة منها بكفه اليسرى ، وأمسك بالكف الاخرى المجموعة الثانية من الخيوط ... وجد ان في إمساك الخيوط بكلتا يديه راحة له ولصدره وابطيه اللذين كانا ينوسان بألم خفيف جراء ضغط الاحزمة النسيجية للمظلة عليهما .

قال مع نفسه :

- لا وقت للراحة الآن ... الان فقط يجب ان اقوم بتوجيه المظلة الى الجهة التي ستوصلني الى ارض الوطن ... لن ادعها تسحبني الى الجهة التي ترغب ... من هنا ستبدأ معركتي مع الريح ... ان ابقى حراً في وطني ، او أن اقع أسيراً بيد الاعداء ... يجب ان اظل متماسكاً ، ان أستغل كل

قوتي ... يجب ان أصمد .

مد بصره الى الاسفل ... كان كل شيء قد توضح له بعد ان تحركت به المظلة بفعل تيار الهواء الذي دفعها الى جهة النهر ... ومازالت المسافة بينه وبين الارض واسعة جداً .

لم يعد يعرف كم مضى عليه من الوقت ... وكم هو ارتفاعه الآن ... عندها حدد مع نفسه اليد التي يجب ان تعمل ... أن توجه اندفاع المظلة ... واي الخيوط التي تنسحب ...

كان اتجاه جسمه الى الجنوب ... وجهه كله متجه الى الخليج ... هكذا حدد اتجاهه بعد ان عرف اتجاه امتداد شط العرب من خلال نهايته التي انفتحت داخل مساحة واسعة من المياه .

كانت المظلة تأخذه نحو اليمين ... تقطع به النهر بزاوية قائمة ... حيث ارض الفاو ... عندها بدأت يده اليمنى بالعمل ... اخذت تسحب مجموعة الخيوط الى الاسفل ... كان يريد للمظلة ان تميل قليلاً الى اليمين كي يدفعها تيار الهواء المقبل من اليسار ... يجب ان تقودني المظلة الى الجهة الثانية من شط العرب ... الى ارض الفاو ... ارض الوطن الحبيب .. الى طفلي الذي لم يرني الان ... ان ابقى حياً ... حياً ياسيف الناصر .

الألم يتصاعد مع كل نترة من يده اليمنى ... عندها قال مع نفسه : -

- لن تضيع الساعات التي قضيتها في قاعة الالعاب هباء ... لقد جاء دورها الآن ... لقد نمت عضلات هاتين الذراعين اللتين ستقودان المظلة الى ارض الوطن ... فليذهب الالم هذه الساعة الى الجحيم مادامت عضلات ذراعيّ قد نمت بصورة جيدة .

سأعود اليك ياطفلي العزيز ... وسأحكي لك عن هذا الالم

اللذيذ .. الالم الذي بدا يشل كل حركة في يدي ... سأحكي لك عن صقر خانه ذلك الجسم المعدني الذي كان محلقاً به ، فتركه معلقاً بين الارض والسماء ، لكنه لم يته .

كان قد دفع بجميع اجهزة جسمه رغم البرودة التي احاطت به ، الى العمل ...

كل شيء يجب ان يعمل فيك ياسيف الناصر ... دماغك ، عضلات جسمك ... يداك ، صدرك ، كل شيء .. يجب ان تصل الى ارض الوطن سالماً ، لتعود مرة اخرى الى الطيران ... عليك ان تقلل المسافة بينك وبين طفلك الصغير الذي لم تره ولم يرك بعد ... يجب ان تعود الى الطيران مرة اخرى ... الى الواجبات التي تنتظرك ... الى المهمات الكبرى في عمق الاراضي الايرانية بالذات ... لن تخذل وطنك ياابن الناصر ... لا ... وهذه الحبيبة التي تنشر جناحيها من فوق رأسك ، هذه المظلة التي نسيجها أرق من جناحي فراشة لن تخذلك ، ستقودك حتماً الى ارض الوطن ... لانها هي الاخرى قد تنفست هواء العراق الحبيب .

كان صوته وهو يتحدث مع نفسه ، ينتشر بين خلايا جسمه ... احس به يصعد الى خيوط المظلة التي مازالت تظلله بفيئها اللذيذ ... ومازالت ذراعه تسحب خيوطها محاولة استدراجها الى دفعه نحو ارض الوطن .

١٩٨٧/٣/٣٠

الفهرست

- مدخل ٥
- اللقاء الاخير ٧
- قبل الساعة السادسة صباحاً ١٥
- الطيور تحلق عالياً ٢٧
- لحظات قلقة ٣٧
- القرار ٤٩
- الشاحنة ٥٩
- النافذة ٦٧
- البداية ٧٩
- ايام الزهو «من مذكرات فتاة عراقية» ٨٧
- طائر العنقاء ٩٩

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story